مفتاح العمّاري

تقطير العزلة

محاولة لتدوير خانة الصفر

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

حسن يوسف اللويشي

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

تقطير العزلة

محاولة لتدوير خانة الصفر

مفتاح العمّاري

تقطير العزلة

محاولة لتدوير خانة الصفر

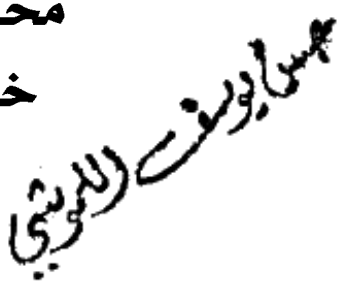

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE

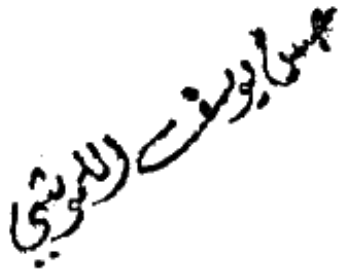

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

تقطير العزلة

محاولة لتدوير خانة الصفر

مفتاح العمّاري

الطبعة الأولى: 2020 م

رقم الإيداع المحلي: 2020/403

رقم الإيداع الدولي: 978-9959-921-81-9

جميع حقوق الطبع والاقتباس والترجمة محفوظة للناشر

دار الكتب الوطنية بنغازي - ليبيا

هاتف: 7165022.21821+ - بريد مصور 4843580-21821+

ص.ب: 75454 - طرابلس Email: almosgb@yahoo.com

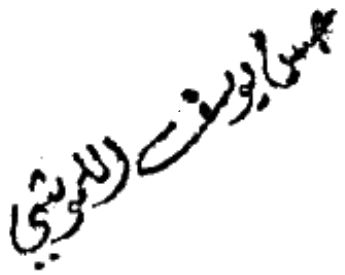

إهداء

إلى :

حسين المزداوي، محمود اللبلاب، مجاهد البوسيفي، حكيم القبائلي، عبدالله الماي، سعيد المزوغي، محمد عبدالعالي العبيدي.

شكرًا لدعمكم، شكرًا لأنكم أصدقائي.

م/ العمّاري

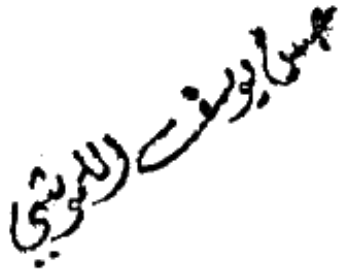

« من غير أن تسافر بعيدًا
تستطيع أن تعرف العالم كله
من غير أن تنظر من النافذة
تستطيع أن ترى طريق السماء
كلما ابتعدت أكثر كلما قلّت معرفتك »

«لاوتسو»

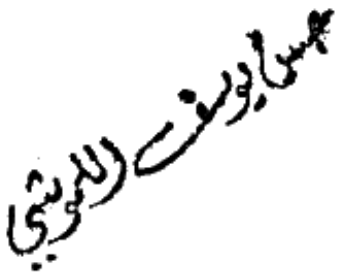

مثل حيوان طائش

١

بمراجعة بسيطة لحياتي، أدركت بأنني خارج الكتابة لا أساوي شيئًا. اعرف أن هذا الكلام خليق بكاتب قد أنجز كتبًا عظيمة، الأمر الذي لا ينطبق عليّ. لكن يكفيني الاستمتاع بهذا الإحساس كحافز لكي استمر في الحياة، وان اكتب بغض النظر عن أهمية ما اكتبه. سمعت العجوز التي لا تريد أن تهدأ، تكرر « أين أنت أيها الضال». فهي لا تحبني، وفي نفس الوقت لا تطيق غيابي. قلت لها يوما: «اتركيني لوجه الله فأنا تعبت». قالت: « من أين لك أن تعرف الله وأنت لا تصلي يا خامل. صدق من قال: البطن تولد الصباغ والدبّاغ». هي خرفة ومقعدة، وأنا مريض بالكاد أمشي؛ لهذا سأكتب جملتي المستعصية والأصيلة، البارقة كالموت، التي تترك الخراف لمشيئة الذئب. لا تلتفت، تتركُ الصحراء وتمضي؛ كما لو أن السؤال إجابة.

★ ★ ★

أمس، كنتُ أفضل حالا، وإن بدوت كسولا كعادتي. لم أحلق ذقني. الصباح رخو، فيما السماء استحالت غبارًا استعار من شمس محجوبة ألوانًا دامية وثقيلة، تصنعُ المزيد من التطيّر والكآبة. اجتزت الدرج بالصعوبة نفسها كلما احتجتُ خبزًا أو خضارًا أو تخلصت من

قمامة. حيَّاني جاري القاطن في الطابق نفسه، فرددت التحية بمثلها. سألني عن حالي وحال العجوز، فتمتمت مقتضبًا، فيما كنت أقطع الشارع بوهن، حذراً، متوجّسًا.

★★★

كنت لا أغادر شقتي إلا نادرًا، محشورًا معظم يومي في غرفة المكتبة، غير هيّابٍ أن أتعفّن بجوار الجاحظ، وابن المقفع، وبورخيس، وكافكا، وانسي الحاج ولاوتسو، وأغوثا كريستوف، وخوان رولفو، وماركيز، وكويلو، وآخرين. أن أتعفن بكرامة بين الكتب؛ لهو أكثر شرفاً من الانتماء إلى عصابات القتلة.

أحيانًا أعزّي نفسي، فأقول: سواء أكانت أفكاري واضحة أو مشوشة، عليها أن تقترف مادتها بلا تحفّظ، أن تخرج من كومة رأسي وتستعير ما يليق بها من عبارات؛ أن تباشر الإعلان عن كونها معنية بي بالقدر الذي يجعلها تشير بطريقة واضحة، يُفهم منها دونما لبس، بأن ثمة شخص ما يريد أن يكتب.

وان كنت لا أجد أيما غضاضة في الذهاب بالكتابة إلى فعل الغائط، طالما لامناص للمرء من أن يتخرأ. هذا ما كان يجعلني اجترّ قلقًا مضنيًا في صباح يوم الاثنين الخامس من نوفمبر 2012 حيث سيتعيّن على الكهل الذي كنته أن يستيقظ مبكرًا، وقد استقر عزمه أخيرًا على الذهاب إلى مقر منظمة قدامي المحاربين. كنت مترددًا، أحسب المسافة من بيتي إلى هناك. في البدء كان لا مفر من تهيئة

نفسي. تطلّب الأمرُ وقتًا إضافيا من العلاج، إذ قضيتُ قرابة شهرين وأنا اروز هذا الثقل؛ لأن مسألة الخروج إلى الشارع باتت تزعجني.

قالت العجوز: كنْ شجاعًا وتوكّل على الله، فلم أعرها اهتماما، حتى أنني أستغرب كيف أمكنها سبر ترددي. أمي دائما تتربّص بأفكاري. هذه العجوز الخرفة عليها أن تدعني لحالي، أنا ميّت منذ زمن، ولا أريد تكريمًا أو تعويضًا من منظمة المحاربين القدامى.

فهم محض شلة متبطلة أقامت تجمعًا ونشرت العديد من الإعلانات الدعائية لجذب البؤساء والخائبين من جنود الجيش القدامى ممن شاركوا في حروب تشاد ولبنان وأوغندا؛ وبذا استدرجت عشرات الآلاف منهم للتسجيل في عضويتها وقد دفعوا لإدارتها - عن طيبة خاطر - رسوم اشتراك؛ بعد أن أغوت أولئك المساكين تلك الأرقام الخيالية بالنسبة لهم، والمعلن عنها في الصحف المحلية والنشرات والمطويات الملونة، كنوايا طيبة لجبر الضرر أو هي بمثابة تعويض مجز عن أضرار الحرب التي خاضوها بأوامر من الطاغية. كنت قبل أن تقتحمني أخبار وحكايات مزاعم تعويض المحاربين القدامى أؤثث سردا عن جندي - ربما ذلك أنا - لكن ها قد تعذر عليّ العودة لمواصلة السرد. حيث أحاول دونما جدوى استئناف الكتابة في روايتي التي تقطّعت أطرافها. كما لو أن جريمة ما قد ارتكبت داخل مخيلتي لأسباب تتعلق بالعبث وحده حين تتمنّع اللغة، وأن قردة أشقياء يلعبون بأعواد ثقاب داخل مستودع ذخيرة. لهذا: عندما لا تعثر عَلَيَّ الكلماتُ، أنا ضائع.

★★★

أجل: عندما لا تعثر عَلَيَّ الكلماتُ، أنا ضائع. الكلمات التي كانت في يوم ما تناديني، لم أعد الآن اسمعها كما كنت قبل أن ينهار جسدي، حيث كل شيء تحت أصابعي يتحول إلى كلمات، كل شيء: المتحرك والساكن والعصيّ واللين، النساء والأحلام والطعام والمدن والبحار والأصدقاء / كل شيء: التاريخ والحكمة، وسفر الأنبياء، والجنود، ولغة الرياح، والظلال، وقداسة العزلة.

★★★

رائحة الخوف تصّاعد من خطواتي، بينما أقطع الشارع بصعوبة، مرتابا وحذرًا من تهوّر السيارات المسرعة، أضربُ الإسفلت بوهن صوب الضفة الأخرى، حيث تربض حديقة ميتة، كانت في يوم ما سجنا، يسمى بورتا بينيتو؛ فيما طلقات الرصاص تحدث ضوضاء حدّ التقاطع؛ فيما الثوار المتربّصون فوق عربات الدفع الرباعي، حاملات المدافع الرشاشة لا يكفون عن إطلاق نيرانهم الطائشة؛ فيما ثلة زرازير تجفل بكثافة لا أثر لها؛ فيما أصوات تكبير ترتفع . كنت كهلا، وعليلا أمشي بوهن دونما إثارة أيما شكّ في كوني محض ظلّ يتعثر. فما من أحد هنا، يمكنه الإصغاء لروحي. أنا نكرة. حتى العجوز أمي، بعد اعتلال جسدي، صارت تزدريني؛ فلطالما دللتها واحتفيت بها، جلبت لها اللوز والرمّان، والجوافة التي تحبّ. كان

ذلك قبل أن تتهدّم أركاني؛ حتى أننا لا نلمس درهما واحدًا من معاش العجوز الضماني. أمّا الآن، وقد تحزّبت الصحفُ وتمذهبت الإذاعاتُ، والتي على كثرتها لا تقيم وزنًا للأدب ومريديه، ضاقت اليدُ وغابت الحيلة؛ إذ غدا المجال نهباً للمتسلقين من دهاقنة السياسة؛ فهم وحدهم من يهيمن الآن على المشهد؛ وبذا لا مناص من الاتكاء على معاش العجوز. كانت هذه حلقة الضعف التي جعلتني أستجيب أخيرًا لذلك الخبر المتعلق بتعويض المحاربين القدامى، الذين زجّ بهم في حرب تشاد.

★ ★ ★

من بعيد، بانت واجهة مقر المنظمة. هناك حيث شجرة التوت. الزحام على أشده. وكلما اقتربت أكثر، بات من المتعذر، محض التفكير في اختراق الحشد الصاخب والمتهالك بعنف، دونما انتظام حول شبّاك ضيق، بالكاد يتيح رؤية رجلين غاضبين، كانا يرتديان سترات عسكرية مرقّطة، ولا يكفان عن تعنيف القطيع المتدافع بمناكب عشواء.

كم آلمتني رؤية سحناتهم المدبوغة بعراء الفاقة، وأيديهم الخشنة، المتصالبة والمعروقة وهي تتحفّز هائجة، أو تتعلّق بقضبان النافذة الحديدية ملوحة بأوراق مجعلكة، لكي يُتاح لأصحابها تسجيل أسمائهم ضمن قوائم المحاربين القدامى في تشاد ولبنان وأوغندا وغيرها من مناطق الشؤم، لعلّهم يظفروا أخيرا ببطاقة تعريف تثبت

رسميا، كونهم من متضرري تلك الحروب التي خاضوها رغمًا عنهم. يا الله هل يكفي أن يكون المرء جريرة جور، ومنجم إجحاف، وصناعة غبن وجهل ومرض وخديعة، لتنصفه الأقدار بعد لأي، بصفة الضحية. دلّني أحدهم على لوحة إعلانات، أُسندتْ بإهمال حدّ الحائط، على يمين باب المقر المقفل. دونت في مفكرة جيب أسماء الوثائق المطلوبة، وعدت أدراجي خائبا، أفكر فيما سأقوله للعجوز، والتي تظن بأنني سأقبض تعويضا ماليا مجزيا، حال مثولي أمام اللجان المختصة.

★★★

عندما شرعت في كتابة روايتي التي أسميتها: ثلاث نملات تعبر كتابا، كنت أغادر نومي وأنا أفكّر في الحياة وحدها التي يتعين عليّ إنقاذها. لدواع كثيرة، من بينها مكابدتي الطويلة للمرض، وأن ما يحيط بي أمسى مشرعا على خراب مفتوح. لعل هذا ما يسمّى بالفوضى المستدامة. وأن الموت وحده هو ما يكتسح عناوين الوقائع في هذا الوطن. لذا تعذّر هنا، إفشاء كل شيء، كما ترتّب على الكلمات أن تكون أكثر تمهّلا وحيطة، وهي تروز ما يقال. ليس خوفًا، أو تحفّظا، أو خشية فضيحة؛ إنما تحاشيًا لتطفّل الغثاثة، لحظة ثمالة المخيلة. ولأنني لست بالسارد الدربة؛ بل محض منقّب هاو، وحفّار ذاكرة يبحث عن نفسه، قد اقترحت هذا التربّص، بالقدر الذي يتيحه التحايل على مقتنيات السرد وآلة الراوي، مستأنسا بين وقفة وأخرى، التزود بكثافة الشعر في محل السرد. هذا ما تبدّى حين نذرت مخيلتي لاستدعاء تلك الصور والحكايات التي تتعلق بتقاليد

الثكنات. فيما لم تكن طرابلس في الواقع سوى ثكنة. لذا كتبتُ ما كتبت، فقط كمحاولة لإعادة تأثيث المباد من الذاكرة المهجورة، من الإنسان الذي تخلى عن وجدانه بدءا من تلك اللحظات التي شهدت نزوح الشعر عن مضارب اللغة. ربما لأن الوجدان صار منبوذا؛ **وما الحياة في هذا الجزء من العالم، سوى بهيمة تتمرّغ.**

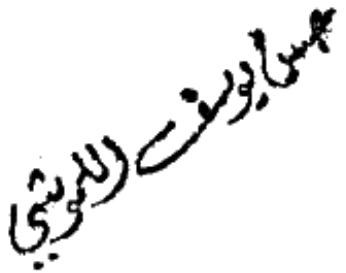

®

خارج الثكنة

(١)

كيف يسعني الآن تذكّر أشياء قد تلاشت، وتاهت صورُها وكلماتُها. ليس الأمر هينا حين يتعلق بإيقاظ الموتى. أعلم ذلك جيدا؛ وقد أضحى التذكّر عبئا هذه المرة. لم أكن أتصوّر بأنني سأخضع رغمًا عنّي لاستحضار أناس لم تكن بي أيما حاجة لضجيجهم. «أنا الآن وحدي .لكن تلك السماء يستحيل نسيانها،» أعني سماء الجنوب: سماء نظيفة ولامعة وحرّة تكتنز بحشود هائلة من النجوم التي تبدو أكثر سطوعا ومرحا من أية نجوم رأيتها من قبل. تلك السماء التي تستلقي بهدوء فوق الصحراء الكبيرة، بلا آفاق أو حدود، لكأنها بشساعتها العظيمة تقارع الصحراء من فوق. أذكر بأننا كنا على مشارف (أوجنقا)؛ وقد افترشنا قطع المشمع على الرمال لنبيت ليلتنا تلك، ثم نستأنف في الصباح رحلتنا. لأن آمر الكتيبة رأى من الحكمة عدم عبور تلك الفجاج الجبلية الواقعة على الحدود الشمالية لمدخل (اوجنقا) في ميقات الغروب، تخوّفًا من أي كمين ماكر قد يباغتنا ليلا؛ فليس من الحنكة اتخاذ مثل هذه المغامرة، ولاسيما أن مذبحة ليلة عيد الأضحى التي تعرضت لها إحدى سرايا كتيبة المشاة الثالثة قبل أسبوع، ما يزال تأثيرها المحزن ماثلا، يلقي خوفا ورهبة في نفسية أفراد كتيبتنا.

(2)

عندما تعلمون بأنني فنان منسي، قد تتساءلون كيف لرجل أفنى جلّ عمره في عشق الفن أن يكون قاتلا. في الحقيقة قد التحقت بالجيش كرهًا، وحملت السلاح رغمًا عن أنفي، كما قُدّر لي أن أخوض حربًا من ثلاث معارك شرسة، لكنني لم أقتل أحدًا.

كنت فيما كنته، محض ممثل مهمل في بيئة لا تقيم وزنا للفن، وأن الفنان في نظرها يظل في أفضل الأحوال مهرجًا ضئيلا يخرج عليهم عبر شاشة التلفاز، ولاسيما في شهر الصوم من كل عام، ليقدم صحبة آخرين بعض فقرات تافهة من مقاطع درامية مجزوءة قد عملت فيها مقصات الرقيب ما عملت، بعد أن تُراز من لجان النصوص، وتُمحّص في مكاتب المخبرين، وتخضع لمشارط الرقيب في عمليات جراحية لن تتوانى وساوس وارتيابات لجنتها عن بتر معظم الأجزاء حيوية لمجرد أقل شكوك قد يستشعرها أنف الرقيب المخبر، فتُشبع تقطيعا وفصدا وتمزيقا لتظلّ في نهاية مطافها الدموي محض لقطات ميتة، لا حياة فيها، سوى ما تبقى من بعض نطّ، وفجاجات حوار؛ لا تصلح إلاّ للهزء والشفقة والرثاء. قفل المسرح القوميّ، مرات ومرات، ثم أعيد فتحه أخيرا بعد أن كلّف بإدارته عدة نفر من المخبرين والمخنثين الذين لا يقيمون للفن وزنًا، ولا يعرفون ما إذا كان شكسبير مسرحيا أم بائع خردوات. في الواقع قد فكرت كثيرا في التخلي عن الفن وأهله وأروقته وخيباته، لأبحث لنفسي عن شغل آخر أكثر جدوى، لكنني لم أفلح في شيء

وكلّما حاولت النأي بعيداً عن خشبات مسارح لا حياة فيها سوى الثرثرة والشكاة، أجدني من حيث لا أدري منقادا كلّ يوم إلى مقر فرقة المسرح القومي. هناك نلتقي مجموعة من الصعاليك الذين لا عمل لهم، نُرغي كثيرا، ثم نحتسي كؤوسا حارقة من التاكيلا التي تعودنا معاقرتها كل مساء؛ ليرمي بنا آخر الليل كيفما يتفق الحال، متعتعين وسكارى نبحث عن ركن ننزوي فيه.

(3)

في الحقيقة أنا شاعر، وهذه مسألة تخصني وحدي، فلم أظهر موهبتي في كتابة القصائد سوى لنفر قليل من صحبي الخلّص؛ لأنني بعد أن يئست من عبث الممثل، لذت بقصيدتي، وأن كنت في واقع الحال حائرًا، كيف يمكن أن يكون الشاعر قاتلا محترفا؛ وأن يجاور بين القتل والقصيدة. قد يبدو الأمر محيرا بالنسبة لكم؛ كما هو بالنسبة لي؛ فلعل المعضل هنا يتعلق تحديدا بمسألة الجمع بين الشاعر والجندي، وهذا ما لم أفهمه، ربما لأنني كنت دائما أتنصّل من شبهة الجندي؛ وهي حقا عقدة محكمة يتعذّر حلها حتى وإن أقسمت لكم بأغلظ الإيمان بأنني لم أقتل أحدا طيلة ثلاث معارك خضتها عبر ثمانية أشهر في الجنوب أثناء الصراع المسلح على السلطة بين قادة الفرق المتناحرة في تشاد؛ أولئك الذين تربّى معظمهم في ثكنات القائد الأممي، واستظلوا بخيمة باب العزيزية.

كنت أفهم في تشكيل الكلمات، أصنع منها عمارة من المعاني والصور والدلالات. لم تكن قصائدي سوى صلوات تخصني وحدي؛ ولذا سأكون بالطبيعة أشدّ قلقًا حين أجد نفسي أحمل بندقية الكلاشنكوف عوضا عن القلم، وأطلق الرصاص على أهداف حية مبيدا أحلامها، كاتما تنفسها. كانت تلك صورة في غاية الرعب بالنسبة لي؛ لذا أؤكد لكم بأنني لم أطلق رصاصة واحدة على كائن حي، سواء كان إنسانا أم حيوانا أو نباتا. فقط تظاهرت متحايلا باستخدام بندقيتي وأطلقت رصاصا كثيرا على أهداف لا حياة فيها، لتمرق طلقاتي طائشة في المدى البعيد، وأنا على ثقة ببراءة نفسي من أي إزهاق لروح تمشي أو تصيح أو تهبّ.

أمضيت هناك كما قلت لكم: ثمانية أشهر طوال، أملتها صروف الصحراء وقسوتها وتقلب طقسها وجنون عواصفها الرملية ونأيها وغرابتها. لكن الأيام هي الأيام، ما تلبث أن تمضي بقضها وقضيضها، أو كما يقال بخيرها وشرها. وها أنا ذا أستعيد هذه الصور الرثة بعد مضي قرابة أثنين وثلاثين سنة، تسنى لي خلالها بعد أن ضقت ذرعا بترهات المسرح لأستسلم طواعية لفتنة الكتابة، مكتفيا في حد أدنى بإرضاء نفسي، فلم تعد الكتابة في هذه البيئة التي تتقلّب على حافة الجنون، حدثا يمكن أن يُحتفى به، أو تمثل أيما جدوى، ولاسيما كتابة الشعر التي وصلت إلى أسفل غور الحضيض وضاعة وإهمالا، حتى أن الشاعر بدا يتبرأ كلما نعته أحدهم بصفة الشاعر، والتي لا تؤجج

من حوله سوى نبرات السخرية والتهكم؛ لكن وعلى الرغم من كل هذه المثالب الشائنة، وهذه الوقائع المخيبة كنت أروم سرًا مزاولة الشعر بشغف ظل يتنامى ويكبر بدل أن يذوي ويموت. صحيح لم يحفل بشعري سوى القليل من العشاق الفانين الذين تفضّل بعضُهم بكتابة شيءٍ من المديح، كإنصاف خجول لتجربتي؛ لكن بقدر ما انشرحتُ وانتشيتُ بتلك التلطّفات الرحيمة والإشارات الحميدة في زمن لم تكن فيه للشعر منابر وأسواق ومحافل، غير أنني لم أعوّل كثيرا على مديح أو هجاء. كنت أفضّل الانزواء نائيا بقصيدتي ونفسي عن مطارح الصخب، مستمتعا بمنفاي الذي اخترته طوعا. صحيح بأنني قد أصدرت ديوانًا يتيما ضم بعض المنتخبات الشعرية الأثيرة؛ إذ فعلت ذلك تلبية لتوقي في أن يكون لي كتاب، علّه يعوض القصيدة عن إجحاف لحظتها وضراوة النسيان. لم يكن ذلك همّا بالمعنى التراجيدي الذي يستدعي إحالة هكذا موت لجزء ضروري من المعرفة على جهة المآسي في دراما تاريخ الأدب المعاصر. حاولت مرارا إقناع نفسي بأن أواخر الألفية الثانية هي بمثابة حالة من التفسخ في قيم الثقافة الإنسانية؛ لكنني أخيرًا، وأنا في تلك الصحراء خضعت مرغمًا لسلطان النوم؛ ففي الصباح، سيكون علينا مواصلة الطريق باتجاه (اوجنقا).

• طرابلس 11 ديسمبر 2007

تقطير العزلة

من المجدي بين حين وآخر إعادة النظر في الكتابة نفسها، ليس بوصفها نصًا لغويا احتل حيزًا على الصفحة؛ إنما كتوق متوخّى، محلوم به، نسعى إلى استدراجه عبر إغوائه وجذبه، باستخدام حيل فنية مشروعة، طالما الهدف هو إنقاذ حشد من كلمات تختنق؛ إعادة النظر فيما سيكتب باعتباره نصا يتمخّض. وفيما لو اعتبرنا المخيلة رحمًا، والنص جنينًا في طور التشكل والنمو؛ ستقتضي غريزة الأمومة الإصغاء لحركته ولغته وتململه، والحرص على تلبية رغباته، والاهتمام بضرورة تغذيته، ومراجعة الطبيب للاطمئنان على صحته؛ لأن أي إخلال بالمتابعة قد يسفر عنه موت الجنين داخل الرحم، مما يسبب في حدوث تعفن وتسمم وأعراض أخرى خطيرة يمكنها أن تؤدي إلى وفاة الأم أيضا.

اختناق الكلمة وموتها، سيؤدي قطعًا إلى موت المؤلف. وسواء أكان الموت حقيقة أم مجازًا؛ فأن الفاجعة المحزنة أنه لامناص من هيمنة سلطان الموت على الحياة كقيمة جمالية، وان خارطة القبح لا محالة ستتسع لتغزو مناطق كثيرة؛ ربما ستكون بمساحة وطن بأسره. أسوق هذه الصورة كناية عن تعطل الكتابة؛ لا توقفها، واختلال آلة ضخها، ونشرها، وتداولها؛ كاختلال لمنظومة الخيال، في أكثر تجلياتها نبضًا وحساسيةً. هذا الخوف المضمر

هو ما دفعني إلى اقتراح كتابة نفسي، والاستئناس بالذاكرة تلهفًا لإشباع نوستالجيا بدت متطلبة تحت وطأة النبذ والصمت والعزلة؛ أن لا أحد يصغي إليك، أو يقرؤك؛ سيظل من الحكمة حينها أن تسارع إلى تمثيل دور المصغي والقارئ، لتكون الاثنين معًا: الباث والمتلقي في آن واحد؛ أن تصغي أخيرا إلى نفسك. وهذا ما حدث.

صحيح أنت محض شخص واحد، أي مجرد فرد يلعب فيما تبقى من الفراغ؛ كحيز تنعدم فيه خيارات الشراكة التي تكفل للنص تحقيق التفاعل مع الآخر(القارئ)؛ لكن إعادة النظر المتأنية ستصبح آخر التفاتة رحيمة إذا أفلحت في أن تجعل الشخص الواحد متعدّدا، يختزل حشدًا مستنفرًا لتدوير المخيلة والكلمات والصور، وأنت أيضًا ستكون محورًا افتراضيًا، لتدوير نفسك، وذاكرتك؛ لأن مصيرك لا محالة سيغدو رهنًا باللحظة ذاتها التي تكون خلالها قادرًا على مقارعة النسيان واستدعاء كل ما هو تائه.

انطلاقًا من هنا سأبدأ مرة أخرى في كتابة نفسي؛ أي من عتبة هذه الحكمة المصونة، وبتضامن شجاع عبّرتْ عنه كل الحواس دون تجمّل أو منّة، سوف أقيم حفلا سريًا للإشادة بنوع متفوق من الحوار الذاتي. لما لا؟ طالما أن اللعبة برمتها تهدف إلى استعارة ذكية؛ ليس لألف ليلة وليلة طرابلسية، أو لدون كيشوت ليبي، أو لأي صنف يحاكي هكذا مصنوعات كلاسيكية عظيمة؛

بل لابتكار رحلة أبلغ أثرًا وأكثر شأنًا؛ لأن شهرزاد هذه المرة توشك على الغرق، كذلك دون كيشوت، صار هو الآخر قاب قوسين أو أدنى من حافة الضياع، فيما لم تعد أية أحرف صالحة لصياغة شبه جملة مفيدة، مما يحذو بالسرد ضرورة التخلي عن عبارة " بلغني أيها الملك"، كذلك عن مغامرات سيرفانتس. وهكذا بعد الإقلاع الإجباري عن آفة التدخين، والتخطيط لأكثر من رحلة خارج النوم؛ فكرتُ جديًا في تقطير العزلة على طريقتي، والعودة مجدّدًا إلى خانة الصفر، كمحاولة أخيرة لتدوير الفراغ؛على نحو أكثر جدوى. فقط: لعلّي أتعلّم هذه المرة أنه في وسع جندي ما، في ثكنة ما، في شيخوخة ينهشها المرض، في صحراء بعيدة وجاحدة: أن يكونَ لوحده حشدًا ضخمًا يكتسحُ أرضَ التجارب غير هيّاب؛ ودونما تردد سيفتتح أرضًا جديدة، حيث أكثر من غيمة وكتاب، وشجرة تشير، وامرأة تنتظر.

معركة ضارية لغزو قصيدة

في تلك الليلة قبل أن يشرع في كتابة جملة واحدة تفتتح قصيدة، كان ممتعضا من مسألة النظر إلى الاستعارات بوصفها محض سكن للمعنى، فتبلبل وهو يحرك أكثر من مجاز حار، لصور شتى تتنفس كنجمة وحيدة في سقف الظلمة؛ مما اضطره لتمزيق كل عبارة لا تنتسب لذلك النقاء النظيف من شبهة كوكب متغطرس، حتى لا تغدو استعارته مجرد ظل وحسب. ربما لأن الألم المجهول ما انفك يتغلغل منتعشا داخل مخيلته التي ما تزال بعد دهر كغرفة مضاءة بأحزان الأسرى، وأنه مهما سعى لإضافة المزيد من الموسيقى وباقات الورد وإشاعة العطر والشموع الملونة، سيظل الأسى متربصا بكل عبارة اجتهد في إغوائها. وحتى لا يعيد كرة الفشل قرر هذه المرة أن لا ينتظر الهام الكتابة بل سيغزوها. كان أمله الوحيد وربما الأخير أن تختزل القصيدة كل حياته التي عاشها، وان يحتكم إلى ما احتفظت به ذاكرته من وقائع قليلة افلح في إنقاذها من التآكل، مبديا كل اعتراف رصين بوظيفة النسيان.

لهذا استأنس فكرة أن يكون محاربًا، وقال لنفسه «**ما الضير في أن أؤسس جيشا وأخوض معركة ضارية لغزو الكلمات التي لم تستسلم**». كان فقط يتوق لاستعادة أوقات ضائعة؛ هي مفتاح

السر الذي يمكنه من فتح كل ما تغلّق عليه حتى ذلك الحين في رحلة المكابدة من أجل الإمساك بشيء تائه. وضع حرفا جوار حرف، حتى أمكنه أن يخفي ما بين السطور أكثر من امرأة تسعى لأن تكون شيئا خارج الثياب؛ حينذاك تريث؛ ريثما تأخذ العبارات وجهتها التي كان يخشى أن تخذلها قواها على تحمل مشقة السفر، ومجالدة المجهول القادم؛ لأن الحياة حسب ما خبرها طيلة ستين عاما لها أوجه تتقلّب، كما لها دورات ماكرة يصعب التكهن بمزاجها لمّا تغضب. **"أنا جربت ما هو أنكى من أن يكون الجندي هدفا لنيران صديقة»**. لهذا كان عليه التخلي عن عشرين كتابا، هي حصيلة مسيرته الأدبية في بلاد لا تقرأ، والتنصل مما حملته من ترهات. وكان يكفيه أن يسخر من نفسه، ليكون أبعد من مجرد حلم. وفي آن؛ ارتأى أيضا ضرورة التخلص من هواجسه السوداء؛ بوصفه أحد القتلى في حرب تشاد، وأنه لم يكن في يوم ما يتيما أو مشردا منبوذا من ذويه؛ فليس بالضرورة أن تكون قصيدته حاضرة كجزء من أرشيف العائلة. لأن الكلمة لا تحتاج كتابا، أو بيتا يطل على ثلاث لغات أو أكثر؛ فقط إذا ما تاقتْ أن تكونَ نهرًا؛ علیها أن تطير.

باب بن غشير 12 ديسمبر 2018

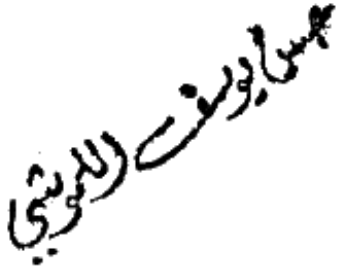

ثلاث نملات تعبر كتابا

ما تزال ملامح الحرب، ومشيئة الفوضى تعبّر عن نفسها بضراوة، وقد تركت آثارها بالفعل على لغة ووجوه القاطنين، نظرات خائفة ومرتابة وقلقة دائما، كذلك على الشوارع، ثمة خرائب يجسدها حطام ظل غباره عالقا على بقايا شجيرات عطشى تتخلل الأرصفة التي غدت مكبا للنفايات ،و مخابز اقفل ثلاثة أرباعها، وضجيج محركات توليد الطاقة التي تعوض انقطاع الكهرباء، وزحمة السيارات، وهي تصطف في طوابير طويلة انتظارا لدورها في تعبئة الوقود، هذا فضلا عن سماع فرقعات الرصاص ودوي انفجار القذائف الذي يشق الجو بين حين وآخر ويهز الجدران ويخلخل النوافذ والأبواب، وعواء سيارات الإسعاف والمطافئ الذي لا ينقطع.

منذ أربع سنوات لم تترك الحرب موقعا إلا وأخضعته لقانونها وقد تجاسرت بأن حولت الشوارع إلى جبهات للقتال.

هنا في حي الطاحونة للحركة وتيرة يومية تشي أحيانا كأن شيئا لم يتغير. وإنني لأتساءل كلما غادرت شقتي هابطا إلى الشارع محتاطا وحذرا بالطبع من سرعة السيارات كلما قطعت الطرقات، هل بلغ تعلق الناس بالحياة إلى حد يجعلهم غير مبالين، كما لو أنهم لا يكترثون للحرب. كان علينا منذ

خمسة شهور أن نتوخّى وبدقة حذرة سياسة التقشف، ولاسيما بعد تأخر معاش العجوز، لذا لا نشتري إلا الضروري ،وهذا ما حدث، فقد اشترينا دقيقا تضاعف ثمنه، وبقوليات وزيتا وتمرا ورزا وعلب تونة. حين ذكرت الضروريات، أعني تلك التي عليها أن تصمد، وقد حالفنا فصل الشتاء لكي تسلم مونتنا، لاسيما الطحين والبقول من الحشرات والبكتريا والتسوس. لهذا وبأعجوبة تستمر الحياة. ومن جهتي، تحايلت بطرق عديدة حتى لا أخسر الحدّ الأدنى من عزيمتي، ليس من ضراوة الفوضى أو اتساع رقعة التهدّم التي تتفاقم يوما بعد يوم، بل من غضب العجوز، أمي التي لا ترحم إذا ما قصرت في تلبية حاجاتها.

أسابيع ثقيلة ومقلقة لم أكتب بعد شيئا مجديا، فيما الحرب لا تهدأ، فما أن تتوقف في هذا الحي حتى تنفجر في ذاك. لقد تعبنا، وعلى الرغم من ذلك كله يظل اللجوء إلى الكتابة هو حيلتي الوحيدة لمخاتلة الخوف والعوز والظلام.

كان معظم أصدقائي قد نزحوا. اختاروا الغربة طمعا في الأمن، وحرية الرأي بالنسبة للناشطين منهم. بعد أن تفشت ظاهرة الاغتيال والخطف والاعتقال. كانت سياسة القمع وتكميم الأفواه قد طالت العديد ممن برزوا خلال الأيام الأولى من الثورة. لكن حتى وان بدت طرابلس الآن في نظر التاريخ محض مدينة مخذولة خلف حطام أسوارها العتيقة، دخانها يتفنّن في تظليل السماء، ونوافذها مطفأة وأطفالها يلعبون بالكلاشنكوف،

ساحة اقتتال وخطف وذبح وترويع. تستوطنها النفايات و ينتهكها المارقون واللصوص ودهاقنة السياسة وسماسرة الحرب، لكنها ليست فزعة أو هيابة إذ يروقها كلّ صباح أن تعرض الخبز ساخنا. صحيح قد فقد الربع دينار هيبته، والذي كان لبضعة أسابيع خلت يمكنه جلب عشر بانينات، ستكفينا أنا والعجوز لثلاثة أيام، وأضحى الآن بالكاد يساوي رغيفا هزيلا تم التحايل على وزنه وحجمه ونكهته. لهذا أحمد الله بأنني لست أكولا، والعجوز أيضاء لم تعد تحفل بالطعام إلا لتسكين ثورة الجوع. لهذا لا تطلب سوى بعض الحساء من الخضار المخفوق في الخلاط الكهربائي،عندما يكون التيار سخيا، وإلا سأضطر مرغما لهرسه يدويا، في شيء من العجالة حتى ألتحق بخيالي الذي تركته يتخبط فوق لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر.

كلاشنكوف

قبل قليل كنت في شقتي الخانقة أنتظر أصوات القذائف، أنتظر عودة الماء والكهرباء وتغطية الهواتف وألعن المليشات واللصوص والجهل والمرض والفاقة، حيث لا شيء سوى الخوف والاستسلام لعبور الوقت.

حين غادرت الشقة كانت السماء ملبدة بغيوم طافحة بحمرة تكاد تختفي اثر غزوة الكتل الدخانية السوداء التي غطت الجو وحجبت النصف الغربي من سماء طرابلس جراء الاشتباكات المسلحة بين المليشيات. كانت خزانات النفط العملاقة تحترق منذ الليلة البارحة، فتشبع الفراغ بروائح نفط وعفن وصباح مكفهر وجدران تتصدع وأجساد تتدافع من اجل الخبز. من بعيد رأيت طابور الفرن يتفاقم. المحال جميعها مقفلة والمدارس والأفواه التي لا تنبس ببنت شفة كما يقال. فقط، تتدحرج في الفراغ بضع عبارات حذرة يتخللها الله، باعتبارها الوحيدة المحايدة والمبهمة والقادرة على التنفس وهي تجرح الصمت بحذر، « **ربي يهدي العباد ويحفظ البلاد** ». فيما لم يبق شيء من البلاد وعبادها إلا وتحطم . « **الله غالب، إن شاء الله خير** ». عيون ترتعش في محاجرها خائفة وحذرة وموسوسة، « **ربي يحسن الخاتمة** » بينما الخبز يتأخر، والطابور يزداد طولا والتواء، ويلتصق بجدران المحال

المقفلة، « **إن صبرتم أجرتم** » فيما أصداء القذائف لا تتوقف، ولا شيء في العاصمة يدفع الناس للخروج من بيوتهم غير البحث عن الخبز والماء والشموع والمحروقات. كل من يتحصل على نصيبه بعد طول انتظار من أرغفة الخبز يغادر بملامح ظافرة، ويبدو أكثر نشاطا وثقة. أربعة أرغفة ضامرة ومشوهة وحارة تنفث وهجا وبخارا لتندس بخفة في كيس النايلون. أربعة أرغفة نقص حجمها وخفّ وزنها وتضاعف ثمنها، بعد أزمة الدقيق والضمير والسيولة والحكمة والبنزين والشرف والأخلاق والكهرباء والقيم. الحياة في طرابلس لم تعد صديقة وفية أو حتى عدوة واضحة، بل صارت غامضة ووقحة يتعذر فهمها؛ محض جثة تتعفن. تضاعف الاكتظاظ والاختناق داخل القطيع وبدأ التدافع يخل بالطابور ويتكدس أمام باب الفرن للوصول إلى نافذة صغيرة حفرت اضطراريا في الباب الحديدي تشبه كوة زنزانة. لكن ما لبث أن استعاد الطابور بعض آدميته لحظة أن توقفت عربة دفع رباعي برز من صندوقها العاري مدفع (ميم طاء). هبط منها مسلح شاب بشعر مسترسل وعينين ناريتين، يحمل كلاشنكوف، أطلق صلية رصاص في الهواء. وشتم الجميع، فانتظم طابور طويل للرجال علي يسار باب الفرن ممتدا لصق الجدار، فيما طابور آخر للنساء أقل طولا من الجهة المعاكسة. هكذا كان عليّ الوقوف دونما جدوى في طابور ليس له آخر، يتحرك ببطء، ويشعرك أن دورك أبدا لن يصل. أجل لن يصل دوري، وأنت يا

عزيزتي تعلمين جيدا كم أحبُّ أن أكون وحدي، اقرأ، أكتب، أجتر أكداسا من صور الماضي، أفكك أصواتها وأعيد ترتيبها كمادة تصلح للتكفير عن جريمة بقائي حتى الآن بلا معنى.

قلت لنفسي: لا بأس، سأروض أوقاتي على المزيد من التحمل والصبر، فأربعة أرغفة ستصمد ليومين وربما ثلاثة. طالما العجوز تكتفي بالشوربة وحدها وعلب الزبادي والقليل من التمر. لكنني لم أجن من الخبز سوى رائحته المشبعة بالخوف والانتظار والترقب.

الضيّ هَرَبٌ؛ قال: عاملُ الفرن.

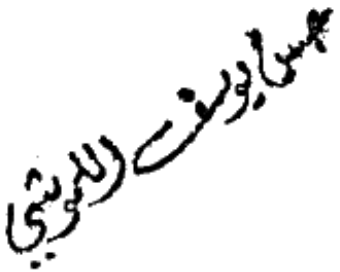

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

أنا في الشارع

بعد خيبتي في طابور الفرن، قلت لنفسي يمكن إعداد فطيرة في البيت كخاتمة لهذا الإذلال، وبعدها سأنتقم بدوري من الكتب والكلمات، أعيد قراءة تلك المتون المهملة، وأكتب كل ما يتبادر لذهني: هلاوس، هذيانات، بهيئة شذرات، وقصائد نثر، وقصص وحكايات ستظل دائما مفتوحة بلا خواتم. لأنه يتعذر علي دائما ابتكار نهاية ما، فما من شيء أكتبه إلا ويقتحمه الخوف، الخوف كلازمة متكررة ومهيمنة، طالما ثمة من يزرع ألغاما في لغتي، ويسلبني هذه المدينة التي أُحبّ، يسلبني الخبز والثقة والنوم والضوء والماء والمخيلة، وتلك الدهشة التي كانت ترافق نظرتي للعالم وتجعلها أكثر بهاء حين أرى الأطفال والحدائق والنساء والبحر والشعر والكتب. أسماء أضحت في طور الانقراض، لهذا انسحب الشأنُ على القراءة، فأضحت هي الأخرى ترتبك إزاء هكذا فوضى، وبالمثل كانت تفشل أية محاولة لإغواء الكتابة، واللجوء إلى الورقة والقلم عوض اللاب توب الذي تعطلت نضيدته، ولم يعد أي تحايل يجدي لشحنها بالكهرباء في أثناء زياراتها العشواء. ولأن المكوث في الشقة وقد تحولت إلى مرجل يغلي صار ضربا من الكآبة، قلت لنفسي: سأهيم على وجهي، تاركا لمشية العليل تقودني أنّ شاءت.

في ميدان الشهداء: أي الساحة الخضراء، قبل خمس سنوات، وسوق الخبزة أيام البشاوات والآغات والكيخيات؛ هو نفسه ميدان ايطاليا أيام الغزاة الفاشست عندما كان الجنرال بالبو ينصب المشانق بجانب نافورة السباع، ويضاجع الحسناوات في فندق فيكتوريا. هنا حيثما تلتفت سيسبقك الماضي، لأن البناية الغربية للميدان، أعني مصرف الجمهورية، أي مصرف الأمة قبل عام واحد، وبنك روما قبل مائة عام، ستظل هي نفسها الأبهة الأبرز في طرابلس لطابع العمارة الكلاسيكية التي خلفها الطليان.

جلست مكدودا بوهن خائب على مقربة من حواف النافورة، محدقا في بلاهة إلى حشود الحمام والمسلحين والنفايات. أخيرا أنا وحدي بعد أن أدركت أختي مريم أن لها أما، تحتاج للماء والضوء، فمريم الوحيدة في العائلة التي تملك مولد كهرباء يعمل بالبنزين، أخيرا راودها الحياء وقدمت هي وزوجها المدجج بالثرثرة، وحملوا العجوز في سيارة مكيّفة. ولأنني وحدي تذكرت سيبتموس سيفروس قبل نفيه إلى لبدة. ففي يوم ما كان الرجل يقف بأبهة موليا ظهره لسوق الترك وهو يتطلع بكبرياء ناحية الميدان، منتصبا بفخامة قامة حجرية لإمبراطور روماني نصف ليبي. التقطنا صورا أنا ورفيقي في الكتيبة الرابعة والذي سيقتل في معركة وادي الدوم. من هنا أيضا مرّ موسليني، وقبله بأربعة قرون تبول جندي سكير من فرق ايزابيلا. هنا هتفت الجماهير للطغاة، ودفنت أكوام من جثث ضحايا الطاعون،

وشيعت جنازات، وأقيمت صلوات استسقاء، ووزعت أوسمة، ووضعت أجساد على منصات الإعـدام. كما حصد الرصاص أرواح مئات المتظاهرين في ليلة العشرين من فبراير 2011. هنا التقيت الشاعر علي صدقي عبد القادر ذات مساء خريفي، كان يرشق وردة في جيب سترته ويتغزل في الشمس والخواء، كما لو أن طرابلس لا تضم سجونا ومعتقلات وشعراء تتعفن أحلامهم وقصائدهم داخل الأقبية والزنازين.

رنّ هاتفي المحمول. سمعت وبصعوبة من يسأل:

أنت في البيت ؟

لا، أنا في الشارع.

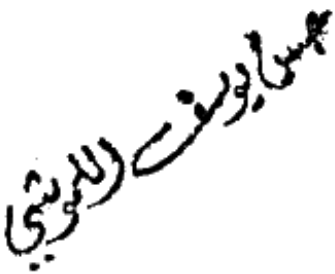

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

أنا في البيت

هنا يمكننا صناعة حديقة من بضع كلمات .

هل تفهم الآن لماذا لا أمتلك قطعة أرض مغطاة بالأعشاب والأرانب والألعاب.

ليس بالضرورة مغادرة الغرف، وفتح النوافذ، لكي نرى الله.

لهذا اقترحت على نفسي المزيد من الصمت.

لأن الكتابة تستدعي طقسها، تظل الكلمات محض عملية إصغاء لما لا يُرى أو يُشدّ بغير الفراغ نفسه الذي نحس به كلما ظفرنا بتحقيق المتع، تلك التي يتعذر ترجمتها عندما يتحول الصراخ إلى طغاة بارعين في تلغيم المستقبل،

إلى موسيقى مارقة تستمد نصف حكمتها من تعاليم الغابة.

لأن الكتابة أحيانا مرادف للتنقيب عن كوكب ضائع كان على الكلمات أن تتوغل أكثر في تأكيد المتاهة.

أجل من بضع كلمات فقط، يمكن بناء منزل من طابقين، واستضافة امرأة، والسفر إذا شئت.

لعلي بذلك أحظى بنصف حلم طالما كنت فاشلا في العزف على الكمان، كما أخفقت في الرسم والنحت، وتخليت بأسى في إحدى ثكنات درنة، عن رأس من حجر بحري لأميرة ذات وجه لم يكتمل.

ما من حقيقة إذاً يمكن تأكيدها،

ما من منطق أو تماسك، أو نسيج،

طالما ثمة لغات في هذا العالم تنتظر الخلاص.

في أفضل الأحوال سنختفي بأنصاف ثياب وأسماء ومفاهيم.

هذا ما كان على القصيدة سواء كانت نظما أو نثرا .....»

وهنا انقطع التيار الكهربائي لأغرق في الظلام . كانت الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة 20 مايو.»

شرعت في البحث على بقايا شمعة، مهتديا بولاعة السجائر، أسحب أدراج دولاب المطبخ، أدراج الكومدينو، أدراج الأنتريه، أدراج الفاقة، وحين فتحت أدراج الذاكرة. استأنست أخيرا بابتكار فتيلة زيت لم تصمد طويلا في مقارعة ليلة حالكة.

بعد أن طردتني كآبة الشقة وتلك الظلمة التي لا تُفسّر، لجأت إلى حيث كان البشر مثل الصراصير في ليل عفن.

مشيت وحدي لا الوي على شيء.

مرة أخرى:

في الشارع؛ أنا هذا الألم الذي يتسكّع.

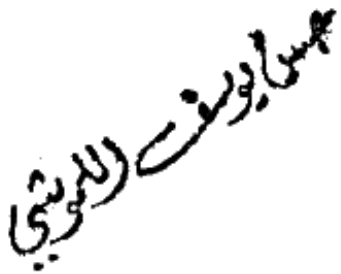

النظر إلى جثة

أشعر بأنني في مأزق. وان كنت في الحقيقة التي تخصني سأحتاج إلى أكثر من اسم حار، ونعت جسور، لكي أدرك بأنني صرت ميتا؛ وهذا ما تؤكده جثتي كبرهان حيّ على نهايتي غير المحزون عليها من ذويي وبعض صحبي؛ لاسيما أن عيونا كثيرة تخطتني من دون أن يرفّ لها قلب، مما لا يترك مجالا لأي صدى يشي بوجودي ماثلا ككائن بشري يرزق. وهذا أمر بديهي طالما لا أحد في انتظاري. حدث ذلك قبل عشر سنوات، عندما كنت فرد مشاة باللواء التاسع المدرع، وخضت حربا لا ناقة لي فيها أو جمل. وأنني في نهاية المطاف، لم أكن من بين أسراها المعتقلين، أو من جرّوا أذيال هزيمتهم عائدين بلا أوصاف غير وصمة الجبن. مذاك صرت ميتا، وأينما حللت كان غيابي يسبقني، وأن لا أحد مازال يذكر ما إذا كنت في يوم ما ابنا أو أخا أو صديقا؛ حتى أمي نظفت الأدراج والجدران من صوري وثيابي وبدت أشد شغفا بالجلوس إزاء شاشة التلفزيون، لمتابعة المسلسلات التركية، بحيث لا تترك أيما أثر يدلّ على أنني أمثّل جزءا من حكايات المنزل. في أول أمري أمسيت فريسة خوف طاغ من الموت، وهو شعور غريب استبد بي يومذاك، وظل ينخر كياني طيلة عقد ونيف، من مكابدة عزلتي.

صحيح كانت محنتي قاسية، لكن حتى لا تتحول حقيقة موتي إلى

تجربة سيئة؛ تدبرت عملا يصونني من عفونة التفسّخ، وآفة التآكل؛ فكتبت جملة تشير إليّ عندما كنت طفلا ألعب بالطين، وأخرى تشير إلي مقطّعا بفعل قذيفة هاون في خندق صحراوي، ثم جاورت العبارات السخية، مضيفا بعض العلامات المتعلقة بمصيري المنكود، كضرب من التمهيد لاستضافة كريمة تليق بذاكرة متعنتة؛ لا تستسلم دونما أن تحظى بإزجاء مديح أصيل. أعلم أن الترقّب سيكون وحشا ضاريًا إذا لم يكن لديك عملا تنجزه؛ لذا عليك أن تفعل شيئا وأنت تنتظر. سلخت ثلاثة شهور، منكبّا على لوحة مفاتيح الكمبيوتر، من دون تسطير أيما شيء يشير إلى الفكرة التي كانت تقلقني؛ تلك التي لا أعلمها. ولأنني أدركت جيدًا أن كلينا حيوان ماكر، أنا واللغة؛ ولن نصنع شيئا مجديًا طالما أحدنا يحاول إذلال الآخر؛ لم أيأس؛ فبعد قليل، تركتُ نفسي تنساق مستسلمة بطواعية لتداعيات كتابةٍ عشواء، لا ضابط لها. مسرنمًا أقتفي أثر أسراري - وبلا مبالاة غالبًا برصانة اللغة ووضوح المعنى - إلى أن رمت ممارسة طقوس موتي دونما أي إحساس بالخشية؛ بل أصبح الأمر مبعث غبطة بالنسبة لي، كوني محض جثة تتنفس، وأن الموت وحده سيكون بذرة بعثي، لحظة أن يتحول كلّ ألمٍ إلى كلماتٍ ترفرفُ بهيئةِ طائرٍ منقذ، ينتشلُ جثة، وهذا ما حدث.

• طرابلس. خريف 2018

حسن يوسف اللويشي

حديقة بورتا بينيتو

(porta Benito)

كلّما تجاوزت كسلي فكّرت في الخبز طرياً طازجاً، خرجَ لتوه ساخناً من جوف الفرن. لهذا استمرأت أحيانا وبشيءٍ من الاحتفاء الخروج إلى الشارع، والذهاب سيراً على الأقدام إلى الفرن الواقع خلف طريق السور قبالة مدرسة علي النجار. وكالعادة، في طريقي سأتخلّص من القمامة. شطفت وجهي بالماء البارد، واستبدلت ملابسي، وتعطّرت كما يليق بسوانح خروجي المتقطعة لجلب الخبز والخضار. هبطت درج العمارة المتّسخ: غبار وأعقاب سجائر وأكياس سيلوفان فارغة. حين ولجت الشارع كانت السماء ملبّدة بغيوم تُنذر بمطرٍ وشيك، فيما بدت واجهات العمارات بألوانها الترابية كالحة ومتجهمة، تُوحي جدرانها الصامتة بالكآبة والضجر. عرّجت ناحية الساحة الأسمنتية التي تحّولت من ملعب لكرة القدم إلى موقف للسيارات. كان ثمة شاب يرتب كراس وطاولات بفيراندا كافيتيريا فُتحت حديثا، تطلّ على الساحة التي لا اسم لها. رميتُ القمامةَ عند حافة الرصيف. كانت الساعة الخامسة مساء بتوقيت طرابلس الغرب في نهاية ربيع خائب. وأنا أعبرُ كعادتي وحيداً بمحاذاة سور حديقة بورتا بينيتو، أو الحرية كما تُكتب في الخرائط والعناوين الرسمية، والتي كانت قبل ثلاثة

عقود سجن الحصان الأسود، متحاشيا النظر طويلا إلى شبّان الناصية، عند زاوية الحديقة المهملة، والذين كأنهم وُلدوا فقط لتعاطي الحشيش والفراغ والثرثرة في تفاصيل الموضة وكرة القدم والنساء. بالطبع لن يعيروني انتباها، فلطالما رأوني أحمل في مشية مسالمة أرغفة وخضارًا. في قرارة نفسي كنت أشفق عليهم، كما لو أن سحناتهم الذاوية تذكّرني بنفاية الحياة وبؤس أوقاتها، أو أن النظر في عيونهم التائهة، يحيلني إلى صحراء لا تطاق، عندما كنت محاربا مهملا، حيث الجرحى لا يُعبأ بأمرهم، يُنزفون في الخلاء إلى أن تجفّ أصواتهم، وهم يتضورون ألما حتى الموت، ليظلوا أخيرًا بلا حراك في العراء القاسي. ثمة شيء فيهم - أعني شبان بورتا بينيتو - ينتسب لبقايا تلك الأشلاء التي ربما نجا بعضها من الهلاك بفعل الحظ وحده، وهنا ألمّح إلى رفاقي القدامي في الكتيبة 23 مشاة، أولئك الجنود الذين أخذوا معهم وجوههم وأحذيتهم وأسماءهم، وحكاياتهم التي لم يعد يتذكّرها أحد. اشتريتُ بربع دينار عشر بانينات. وحين خرجت من الفرن كانت تمطر في باب بن غشير. احتميت بالجدران ومظلات المحلات، ولمّا تضاعف عنف زخّات المطر، اندسست لائذا بجوف محطة حافلات قديمة. رُكنت بجانبها أربع حاويات قمامة فائضة وعفنة. غمرتني رائحة الأرغفة الساخنة ممزوجة بعطن النفايات والتراب وعادم السيارات المسرعة. انطويت هناك قرابة العشر دقائق، أشعلت خلالها سيجارة وفكّرت في سلطانة، والتي لست

أدري كيف استيقظ طيفُها الرحيمُ بعد غياب أربعين عاما. فماذا عساه يكون شكلها الآن، أتذكرها وهي لمّا تزل صبية حالمة وزوجة حزينة . أتنشّق عطرها وأنفاسها الحارة كما لو أننا تحت غطاء واحد. لعل المطر من أوحى لي باستعادة الأيام تلك. فذات صباح عندما تهيأت للذهاب إلى المدرسة، كانت تمطر في سيدي عبد الجليل. لم تشأ سلطانة أن تدعني أذهب إلى المدرسة بمفردي، فرافقتني. صنعت لي واقيا مطريا من جوال خيش سميك، طوت نصف طوله داخل جوفه، ووضعته على رأسي على هيئة برنوس، ليقيني من مغبّة البلل، وعلى الرغم من ذلك ما فتئت طوال الطريق تضمّني إلى جنبها ونحن سائرين لكأنها تحيل بيني وبين المطر، قاطعين الدروب الموحلة والبرك باتجاه مدرسة الحميضة. ولم تتركني حتى أودعتني داخل رواق المدرسة المغطّى. سألني يومها أستاذ مادة الدين: أهذه أختك، فأومات برأسي مجيبا، إنها أختي. أجل كانت سلطانة أختي وأمي وحبيبتي في تلك الأيام التي ضاعت فلم يبق منها الآن أيما أثر لحيّ سيدي عبد الجليل، بعد أن تصالبت على أنقاضه طبقات من البنايات العالية واصطفت الشوارع الضاجة بعابريها ودكاكينها وأحقادها. واختفت الطيور والأكواخ وأشجار النخيل ومواكب الحضرة في عيد المولد النبوي، وعربات السفنز، وحبيبتي. ظلّت تمطر دونما هوادة. تحررتُ من خوفي مغادرا المحطة بعفونتها. وأنا أقول في نفسي: إنها تمطر، كما كانت تمطر في سيدي عبد الجليل. عرّجت في طريقي على

بقالة الخضار. اشتريتُ جزراً وبصلاً وربطةَ حبق. أقول لنفسي أيضا: المشية الرحيمة، تعودُ بك رغم البلل سالماً إلى جنّة البيت، لأن الرصاص هو الآخر منذ ثلاث سنوات لا يهدأ في باب بن غشير، حتى أننا لم نعد نوليه أدنى التفاتة، وان كنّا نخشى طيش بنادقه ونزق مريديه. عبرتُ بمحاذاة سياج الحديقة مرة أخرى وقد شعرت بالإعياء. صار المشي سريعًا مصدر تعب، فتمهّلت وقد غمرتني بهجة تحنانة زوّدتني بطاقة نشيطة. كنت قبل ست سنوات مشاءً لا يكل، أضرب أحياء طرابلس حياً تلو الآخر دونما تعب، من باب بن غشير إلى سوق الجمعة، مرورا برأس حسن، والهاني، ثم أقفل عائدا إلى ميدان الجزائر عبر طريق الشط. حيث يطيب لي تناول فنجان (سبرسّو) في مقهى الأوروا، والتأمل بضع الوقت في مهابة الكنيسة العملاقة التي غدت جامعا. هناك كنّا أحيانا نلتقي أنا وصديقي الفنان التشكيلي قبل رحيله لاجئا إلى هولندا. لكن ها أنّ تنفسي يضيق، وقواي ما تلبث أن تَهِن وتخُور، وتكلّ قدماي لمجرد قطع مسافة قصيرة لا تتعدى خمسمائة متر من سكني إلى الفرن. هذا بعض ما خلّفه السرطان الذي عانيت الأمرّين من استبداده بجسدي خلال الأعوام الستة الأخيرة. فمنذ اعتلالي وأنا أفتقد حيوية المشي راجلا. قطعت الطريق باتجاه زنقة مطعم الدحي، وحين غزت أنفاسي روائحُ البيض المقلي، فكّرت بأنني ما أن ألج شقتي حتى أعدّ لنفسي ساندويشا بالبيض والجبن. في الأثناء استوقفني صوت المرأة المتسوّلة التي كانت تحتمي بمظلّة

البناية المقابلة للمطعم. ناولتها ما تيسر من نقود المعدن، واستأنفت سيري إلى مدخل العمارة، وما أن دخلت شقتي، حتى غيرت ثيابي المبللة، مرتديا بيجامة نوم، ومن ثم باشرت في أعداد وجبتي كما اشتهيت، بيضا مخفوقا بالجبن قُلي على نار هادئة. وحمدت الرزّاق الذي لم يخلقني متسوّلا، وأن مرضي لم يحل بيني وبين الكتابة المتقطعة للصحف، على ضفاف تلك المقترحات التي اكتبها للراديو الوطني، لتذاع كبرنامج أسبوعي ثابت، يعاد بثّ حلقاته مساء الاثنين. ومن ريع هذا المنتوج المتواضع أتدبّر طعامي وأدويتي وسجائري، وأشتري صحفا وكُتُباً بين الحين والآخر. فيما كنت أتناول وجبتي، كان صوت المتسولة يتناهى إليّ عبر نافذة غرفتي المطلة على زنقة مطعم الدحي. تذكّرت جدّتي، وأمي، وفطوم، وجود، ورحمة، وكل النساء الطيبات، وقلت في نفسي: لعل سلطانة لم تكن غير حلم ضائع.

● باب بن غشير . السبت 5 ابريل 2014

نساءُ الصدف

كما لو أن الأيام قبض ريح، وأنا الجندي ضرب من خزانة غبن، هالك بين فردتي رحى الطاعة والعصيان؛ وبين ثواب وعقاب، هكذا تشردت لغتي. فما من عناوين هنا أو علامات أتبعها؛ لكي أصف كيف كنت أنام وأصحو لأمشي عبر مسارب متاهتي ضاربا بقدمي أعمى معاجم صلدة من سرير المعدن إلى ساحة الأسمنت، امتثل ردحا للجمع الصباحي مدمجا في طوابير وصفوف بلهاء. لكن ما أن يستيقظ شيطاني حتى أعود لتمردي وعصياني فأعاقَب، ثم أعيد الكرة تلو الكرة، حتى أمست سجون الثكنات أكثر راحة وألفة من عنبر سريتي حيث سريري المعدني، وأغطيتي وثيابي التي دائما تُسرق مع كل نوبة سجن. لم يعد لدي ما أتدثره غير مخيلتي السادرة في ملكوت نعيمها الافتراضي، وبطانية وحيدة رثة أتصالح مع نتانة أنفاسها وأتأبطها في غدو ورواح بين حبس وعنبر، وبذلة شغل تهرأت أكمامها وفقدت لونها وتقطعت أزرارها.

الأيام تجري والعالم من حولي يتغير وأنا لا أملك من متاع هذه الفانية غير ضجيج أوهامي. تركتْ الكآبة حفرا وتضاريس غائرة على خارطة وجهي وملامح صوتي، ندوبا وبثورا وتجاعيد حطّت مبكرة. فكبرت قبل أواني، وأمسيت كهلا في العشرين

من عمري، كهلا خائبًا وخاسرًا، أينما وطأت تتربصني معامع وخطوب. بعد أن تركني من تركني هكذا أتدبّر أمري دون أمر. ولا احد يصغي إلي؛ لأفضي قليلا بحيرتي وتلبكي. أهملني ذويّ والقوا بي في هذا المكبّ تتقاذفني الصدف العشواء. فتشظّت مطارحي وتقطعت أوصال سبلي، لكأن تاريخي محض صور ممزقة، يتعين علي وحدي أن ألملم تفاصيلها لربما ألمح شارة عطوفة تدلّني عليّ.

لكنني لا أجد شيئا غير أطياف باهتة لنساء الصدف. اسنفرها بعصارة حنيني لتحتفظ بقداسة دفئها. أرسم «سلطانة»، قافلة الرحمة التي انتشلت سيدنا يوسف من قعر الجب، حاضنة ما تبقّى من طفولتي المهدورة على صفيح الفاقة، الحنونة والعابثة واللاهية والمرحة. سلطانة زوجة الشرطي الطيب، وأم المشرّد، الوحيدة التي عناوين العاب وأسماء عائلة كريمة وحقيبة متع وفراش نظيف. وسادتي التي مازال عطرها خالدا يجوب شوارع اللغات كلما استبدت براثن الفقد بخرائب روحي. سلطانة أختي في كتاب الهبات الرحيمة، البدوية الصغيرة بفمها المحلول لعبور العسل، وصدرها الراضخ دون منّة للجوء النازح من تغوّل الأقربين، وضراوة الرحم.

ثم أفرد البياض شهوة كثيفة ،لأرسم بألوان حارةٍ وجه السنيورا «مانويلا» ثغرًا باسما كرحلة إنعاش. هي محطة فردوس تستضيف وافدًا من سكان جهنّم.

السنيورا مانويلا: طمأنينة أصابع تتخلل بنشوة ناعمة عاما من الصبا. ملاذ عابر لقارات الحلم. استراحة محارب أثخنته ضراوة الغدر. فندق من أوقاف الجنة تخدمه الملائكة. هيئة محلفين كرست رسالتها لإنقاذ البراءة من سطوة دساتير الغاب.

امرأتان كلتاهما ضفة نعيم، الأولى واحة ظل، والأخرى جزيرة نبيذ .نساء الصدف، هذا ما تبقى من نسيج الأيام تلك، فقط لصناعة حكاية.

طلعت يا محلى نورها

في شتاء ما، في مدينة ما؛ زحف الثلج عنيفا وكبر وتعاظم حتى غدا عباءة كبيرة من بياض نظيف، غطى السقوف والأرصفة والطرقات، وغمر العربات والأشجار والحدائق، وكل شيء تلفّح به، وخضعت المعالم لهيمنة بياضه. بدا المشهد في أول الأمر مدهشا، وساحرا، وطفوليا، يبعث على البهجة والمرح، وأصبحت كل الكائنات تؤثث مهرجان البياض، أسراب الحمام تحلق في سيمفونيات بديعة، والأطفال أكثر شقاوة وهم يتشقلبون على قباب الثلج، يتراشقون بالندف والضحكات .كانت أيام غامرة بالمسرات ،احتفاء بموسم الثلج الذي بدا هذا العام أكثر سخاء وتوطنا، حتى أن هجماته تواصلت دونما توقف، وتوالت الأيام بلياليها والثلج يهطل بغزارة غير مسبوقة، سدت الطرقات وجمدت الأنهار وتوقفت الحركة، بل كادت أن تشلّ تماما في بعض الجهات، ومن ثم انقلب المنظر البهيّ إلى عناء يومي لا يطاق، وبدا التوق إلى بصيص من نور الله، حلما متعذّرا على أخيلة الحواس التي تبلّدت لهول ما أصابها من جمود؛ فالحركة هنا صارت أكثر تذمرا وشكاة من أهوال الثلج، وما من أحد يهتم بشأن الآخر، كل يمشي في صمت كئيب ناظرا إلى موطئ قدميه خشية الانزلاق بعد أن اكتست الثلوج بطبقة لزجة تتآمر على

الخطى الحذرة، وصارت القواميس تتطلع إلى لحظة تشع فيها الشمس لتبعث قليلا من الدف في الكلمات الحزينة. في هذا الطقس الجامد ،لم تعد تغويني النافذة، لاسيما وأن الصقيع قد تسرب إلى عظامي وتغلغل في مسام روحي، وصرت انكمش أكثر فأكثر حتى تحوّلت إلى قطعة ثلج دميمة، من عظام تتكور على نفسها. كما لم تفلح التدفئة في هزيمة هذا الزمهرير المتفاقم . أضفت إلى المدفئة المزيد والمزيد من الحطب، حتى لم يتبق عود واحد، ثم ألقمت النار بما تيسر من قطع الأثاث التي يمكن التخلّي عنها إكراما للدفء، استغنيت أولا عن كرسي من حجرة الأكل ثم أضفت الثاني والثالث والرابع إلى أن أتيت عليها كلها، من دون جدوى، فجاء الدور على الطاولة، ثم المكتبة التي اقتلعتها رفّا، رفا، لعلّ خشبها القوي، الذي من شجر الزان قد يفلح ولو قليلا في خلق نزر من الدف، كنت أرتعد، وبالكاد أحاول السيطرة على ارتعاشه أطرافي من شدّة البرد، وعلى الرغم من أنني قد ارتديت كل ثيابي الثقيلة، وتغطيت بجميع الأغطية المتاحة، لكن الصقيع ظلّ ينمو بقوة في داخلي. أخيرا اهتديت إلى حيلة غريبة، لحظة أن فكّرت في استدعاء جميع الكلمات الحارة التي تعرفت عليها طيلة عمري عندما عبرت الصحارى، الكلمات الأليفة والمتوحشة، الكلمات التي في قبضة الذاكرة، أو تلك المتعسرة والهاربة دائما، الكلمات الطيبة والشريرة، استدعيتها جميعا بقضها وقضيضها، وصهرتها في وعاء نحاسيّ، حتى تحولت إلى

كيان واحد من معجم مصهور، ثم بدأت على الفور في كتابة القصيدة المجهولة التي طالما حلمت بها.

ما أن كتبت الكلمة الأولى حتى تلاشى الضباب وانقشعت السحب، وبدا ثمة بصيص من ضوء يظهر في أفق الشرق، وبعد قليل، رأيت ما يشبه أشعة خجولة لشمس تنبئ بطلوعها، وسرت في جسدي رعشة لاهبة، ورويدا، رويدا بدأت أستعيد توهّج الحواس من جديد، لحظة أن ذاب الجليد واستيقظت اللغة نشيطة ومتفائلة، تستأنف أبجدية دفئها.

أن تكون شيئا

« ليس على القصيدةِ أن تعني شيئا..

عليها أن تكون شيئا »

- ارشيبالد ماكليش -

عندما تتعلّم حكمة الصمت، ستبتهج كثيرا بما تبقى من لغتك، ستبتهج بالقدر الذي يجعلك تفكر من جديد في خوض معركة أخرى أكثر ضراوة، وقد احتفظت بشيء من كرامة الخيال.

●●

عندما تتآلف مع العزلة،

سيكون حضورك مهما قصر

كفيلا بتحريك عضلة الوقت.

صحيح ستخسر ظلال الآخرين،

لكنك أخيرا ستكسب ظلك.

●●

عندما لا يكون ثمة ما يعوّل عليه،

ستعوِّل حتما على ما يُنتظر،

فقط إنصافاً للانتظار.

كأن تمشي طويلا.

ليس من أجل شيء،

بل إكراما للمشي وحده .

●●

عندما تعتاد الصمت

سيليق بأي موسيقى مهما نأت ترانيمها

أن تعتلي ظهر الريح وتسافر إليك .

●●

عندما يغدو التذكّر كآفة التدخين ضارا بالرئة،

أمض في بحثك ولا تلتفت لثرثرة الموتى.

●●

ما أبهى أن يكون التسكع في طرابلس عبر الفم الذي من نار تأكل محيطها مشفوعة بجموح النظر، حيث لا شيء يبقى إلاّ هي، صانعة الرماد.

●●

تلاشت العناصر جميعها.

ما من شيء في مرمى الكلمات.

●●

في سرّة طرابلس التي أحنُّ إليها:

ما يبدو نملاً طائشاً؛

ليس سوى قشّ تذروه الريحُ

بعد حصاد اللغات.

●●

أحيانًا تقتضي الضرورةُ البحث عن كلمة لَمْ تُنتهك، والنظر من تلك الزاوية المهملة؛ وربما اللجوء إلى ضربات الصدفة التي توائم بين قوسين متخاصمين؛ مع التربّص بهدوء رصين، وحنكة إضافية لما تأتي به الأقدارُ من ما ورائيات لمّاحة، للقبض على روحِ الشيء.

●●

ثمة هنا عديدُ النزوات التي تدّعي مزاولة الكتابة، غير أن شحّ خيالها وقحل مشتلها يجعلُ منها أكثر عدوانية وهي تسعى حثيثا إلى تبخيس المتفوّق والمغاير والذكي.

●●

عندما تمسي الهشاشةُ فنّاً إبداعياً له عباقرته وجهابذته وصنّاعه المهرة،

لا يسعك حينها إلا أن تكتفي بدور المتفرج

الذي لا حيلة له.

●●

انقضت قرابة سبعة أشهر لم أكتب خلالها قصيدة واحدة، وهو زمن مؤلم حين تستنفذ طاقة الخيال لون الخصوبة، وإيقاع التدفق وموسيقى الفيض؛ لحظة أن يتعطّل الوجدانُ عن التشابك مع نسيج عالمه.

●●

اشتقتُ لتلك اللحظة الموسومة بهسيسها وحفيفها ووشوشتها وأنفاسها. مضى وقت طويل لم تعاودني فيه القصيدة. غادرتني النشوة التي كنت أشعر فيها بحياة ما، تريد أن تخرج من عدم ولغة تواقة.

لم تعد تُطاردني كما كانت تفعل.

أنا حزين.

●●

تلك اللهفة غادرتني/

غدوتُ منبوذًا يا قصيدة مفاتيحها لدى الموتى،

أين عطر خيالك.

●●

لماذا يضجّ المكان بكائنات ثرثارة /

الشرفة غشيمة،

والظلالُ لا تُرَى إلا صخبا يتخبّط .

●●

كلمة، كلمة

أكرّس النثر لتنظيف شوارعك من الضوضاء، وغسل خيالك من دخان العروض.

وأضع لغتي رهن نزوتك. ولا شيء يمنعني من حفر اللغات.

●●

العارفُ بأحوالِ الخفاءِ يتهمُ اللغةَ لأنّها تفضحه.

لهذا ظلّ كل شيءٍ يشيرُ إلى نصفه الغائب: يطاردُ ما يعتقدهُ جنةً تهرب. المطر يغادر علوّه بمرح لا يُضاهى.

الثعلبُ يفكّرُ في حيلة أخرى يخدع بها خيالَ الأطفال الذين كبروا .

الشيخ ينظرُ إلى أسفل لأن الأرض تستدرجه إلى جوفها.

ربما لأن الموت بذرة الحركة.

ربما لأن هناك حكاية أخرى تصعد إلى السماء ....

خيولُ تفرد أجنحتها.. يقودها شاعرٌ ينزف ..

حيث لا أحد يأبه بالأحلام التي تُذبح.

حتى الصيادون الذين لا حول لهم سوى هشّ الذباب عن جثث الدلالات الغبية، قالوا: السماء مجرد لون يتمدّد.. ولتذويب قطعة ملح كبيرة بحجم الألم يستغرق الأمر ثلاثة محيطات من التيه.

فقط لأن الماء يبحث عن حرف ضائع للإقامة الزرقاء. فيما أنتِ أيّتها المرأة النائمة، نصفُك الوحيد يتشبّث بضرورة الليل لكي يحلم بجندي أخير، يشعلُ الحرائق في معاجم الجسد. يديرُ حرباً لا هوادةَ فيها ضدَّ خمسة قرونٍ من الرقاد.

فأي صمت هذا الذي يتقلّب خلف الأبواب، لمجرد أن بضعةَ مفاتيح صغيرة تدحرجتْ من قصائد النثرِ للإطاحةِ بإقفالِ العروض الصماء.

●●

يا محضَ نومٍ يمشي، ونافذة تُطلّ على حكايات خائفة،

يا كوب شاي في شرفة تحلّق

يا عين قصيدة حارة تنقلّب من عاشقة إلى أخرى ...

يا ثدى بلاد تنسى أبناءها

مَن يغش حليبنا ويهمُس خلف الأذن برنيم كاذب.

فما نراه من نجوم هي كلمات تحترق

لكي تُقرأ، عليها أن تضيء.

وما نراه من غيومٍ. خفة ماءِ

لذا يلزمنا أن نطيرَ لكي تنأى الأرضُ قليلاً

أن نأخذَ الكتبَ المبلّلة ونترك الحروفَ تتلاشى

كسديمٍ يتخدر.

لأّننا يا حبّي لا نملك ما يتخيله شاعرٌ يمشى سعيداً إلى حتفه ..

وهو يهتف:

ثمة موسيقى تتفتحّ في حقول الله ..

ثمة حبرٌ سعيدٌ يتضافر،

يغدو قمرًا نظيفًا من الشبهات

ثمة لونٌ آخر من النساء في هذه القصيدة ..

ثمة شيء خلف إذني يتآمر ضدي

وفي خزانة الريح ...

ملايين الكلمات التي تنتظر .

● طرابلس، صيف 2004

حلم ..

تقول الحكاية:

ثمة شاعر سامق، حلم في برهة ما بضرورة تغيير العالم، معتقدا في الوقت ذاته بأن بضعة قصائد تائقة في مقدورها أن تقلب معايير الكون من التخلّف إلى التقدّم .. لهذا شرع يسعى دونما كلل أو ملل إلى تحقيق مأربه، ودأب في كل حوار أو مقابلة صحفية أو إذاعية يكرر، - وبإصرار عنيد - تأكيد انشغاله بضرورة هذا التبديل، لكي تغدو الحياة - حسب زعمه - أكثر أمنا وطمأنينة وجمالا، وكأنه قد أيقن، وبقناعة راسخة بأنه يحمل رؤى جديدة لعالم بديل، لا قهر ولا اغماط فيه. وهكذا تنامي معه هذا الهاجس ملاحقا إيّاه حتى في نومه . ولأن الأفكار والرؤى، شأنها شأن الكائنات الحية ما تلبث أن تنمو، وجد الشاعر السامق نفسه مع مرور الأيام قد تواطأ مع هواجسه الجميلة إلى الحدّ الذي لا رجعة فيه، وظل لزمن طويل هذا شانه، من دون أن يبلغ شأوًا ما، أو يحقق ما يصبو إليه من طموح التغيير الذي يحلم به، لاسيما في عصر متعولم لم يعد فيه للمنتوج الأدبي - سواء أكان شعر أو نثرا - تلك الحظوة، والمكانة اللائقة. ونحن هنا إذ نسوق هذه الحكاية العجيبة لا يخالجنا أي ريب في قضية تغيير العالم التي جعل منها الشاعر الفذّ ديدنه الدائم، وشغله الشاغل، وأنها تعد من القضايا الكبيرة، والمهام الجسام التي يتعذر تحقيقها ببضعة

قصائد؛ ذلك، لأنّ الشاعر المهووس بالتغيير، قد طفق دونما كلل أو ملل في تكريس هذه القضية الكبيرة؛ وأضحى يعدها من أوليات أجندته ذات القضايا المصيرية. غير أن هذه المسالة المستعصية، قد تفاقم قلقها من دون أية جدوى، وهيمن طغيانها على أفكار شاعرنا، إلى الحد الذي أهمل فيه رعاية أسرته الصغيرة، وغض الطرف عن متطلبات أبنائه المعنوية والصحية، ومتابعة تحصيلهم الدراسي، غافلا أن العالم الكبير يبدأ من تلك التفاصيل الصغيرة التي تحدث داخل منزله البائس. وأن زوجته المسكينة، قد استنفذت حلمها وصبرها لطول ما حاولت لفت انتباه الزوج - الشاعر الحالم - إلى ضرورة الاعتناء بمشاكل أطفاله، الذين كبروا كنبت شيطاني من دون أن تكون لأبوته أية التفاتة عطوفة، يمكنها أن تكفل الحد الأدنى من الاهتمام بمتطلباتهم، ولاسيما أن الشاعر الفحل كان في كل مرة يغضب ويستفزّ ويثور، مؤكدا لها في حنق بأنه مشغول بقضايا كبيرة تهم مستقبل الإنسانية كافة، وأنها (أي الزوجة) تتعمّد تحقيره حين تستدرجه إلى مثل هذه التفاصيل التافهة. غير أنه قد أكتشف بعد فوات الأوان حقيقته الخائبة، ووقف على فداحة حمقه، حين لاحظ أن أسرته الصغيرة قد ساءت أحوالها النفسية، وتصدع بنيانها، وتفرق شملها؛ وأن الصغار قد كبروا، كمنحرفين جدد يضيفون إلى الحياة جريمة نكراء، ارتكبت باسم تغيير العالم، والذي تغير فعلا، ولكن إلى الأسوأ. حيث انتبه بعد زمن ضائع: بأن الغابة الكبيرة كانت في البدء بحجم بذرة السمسم، هذا كل شيء.

الرجل العليل وزوجته الغيورة

حين أدرك رجل عليل أن هشاشة جسده أمست تعوق حركته وتخلخل علاقته بالعالم، لامس اليقين الذي لا يتزعزع بأنه لا غضاضة البتة من الاعتراف بقوة الهشاشة، وأن طبيعة الجسد بما تنطوي عليه من عناصر ومركبات وأوردة وشرايين وأعصاب وأنسجة وخلايا قابلة للتهتك والتلف، لا تقل بطبيعتها الظاهرة والخفية تعقيدا وغموضا عن الروح التي بأمر ربي. لهذا عندما فقد الرجل العليل القدرة على مغادرة الفراش اقترح على نفسه استدراج العالم إلى سريره؛ وأنه في مكنته ببضع كلمات نشيطة بث الحياة في عالمه المتهالك وضخه بتلك الطاقة التي لا تنضب. وهكذا بدأ في استدراج حشد من الكلمات التي في وسعها إيواء وتأثيث خرائط بديلة، عوضا عن عالمه الضائع، فلم تكن مشيئة عزلته سوى قدر لا فكاك منه، لذا نسف جدرانها وأصبح من ثم يتفنن في تكوين مخلوقاته، مستحضرًا ما يشبه طبيعة بكرا لم تمس، حيث قاده الشغف الكامن أن يطلق نفسه عبر شساعة فضائها المطلق، لكأنه (حي بن يقظان) في جزيرته النائية، محاولا اكتشاف الأسماء الأولى، وابتكار الأشياء المجهولة. لكنه ما لبث بعد حين أن عدل عن سذاجة فكرة عالمه الوحشي، الذي يقتضي بالضرورة صيد الطرائد وسكن الكهوف، واكتشاف

النار، مستأنسا بأن تكون مخلوقاته أكثر قربًا وألفةً ودفئا، لذا ترك العنان للكلمات وحدها بأن تقترح الأشكال التي تروق لها. ليجد نفسه بعد قليل إزاء هيئة امرأة ذات جمال لا يضاهى، لم تدخر بلاغة المعاني جهدا في تهذيب صفاتها، متجاوزة كل ما خطته عبقرية البشر من قصائد ورسوم تسمو بالروح وتمجد بهاء الجسد؛ من دون أن تغفل التفنن في تكوين الفضاء الذي يليق بهكذا كائن من فصيلة الملائكة. في الصباح التالي قرأت الزوجة الغيورة ما ارتكبته نزوة الرجل المريض من جرم لا يغتفر، فمزقت المرأة المحلوم بها، وقلبت المنزل رأسا على عقب، وأقامت الدنيا ولم تقعدها، من دون أن تترك للعليل أيما فرصة لتبرير موقفه الواهن الذي سمح لخياله النزق بأن يحتفي بامرأة أخرى لا تشبهها في شيء. يقال والعهدة على الراوي أن الرجل العليل قد توقف تماما عن جريرة الكتابة على الورق، وافترض عوضا عنها الكتابة على الأثير، حيث تكفلت الريح وحدها بأن تحمل كائناته الجميلة إلى جهات قصية لا تطالها يد العبث.

شكرًا لكل شيء

شكرًا أيتها المحنة؛ قد وهبتني الروح العظيمة التي تبتكرها هشاشة الجسد، شكرا للفقر الذي ما انفك ثراؤه يؤثث الفراغ. شكرا للجوع الباذخ الذي دلنا على رغيف الصبر فغدت الآلام سهوا لا وزن له، للكتب الأصيلة والرديئة والتي بفضلها جميعًا تعرفت على الكثير من الأسماء. لثكنات الجيش بسجونها ومراحيضها وساحاتها وجنودها الطيبين والماكرين والحمقي، وضباطها السفلة، شكرا لصحراء الجنوب والخنادق، للصباحات المبكرة في كالابريا؛ بنوافذها المرحة وهي تتقرّى عزلة جبال كاتنزارو الموحشة، للوضاعة دونما ريب؛ وقد أتاح تسلطها معرفة السموّ عن كثب، كإنصاف متأخر لترهات المرض التي جعلتنا نستمد الإعجاز من أبلغ العبارات وهنا، للمستشفيات بلا استثناء في الوطن والغربة، للجراحين الأدعياء والمهرة، للممرضات الحنونات والقبيحات، للغرف الحميمة، والباردة التي كلما ضاقت جدرانها اتسعت حجرات البدن، وتأثث فراغ الوادي رحم الكلمات البريئة. شكرا للوفرة الطاردة التي يهبها الهامش صرامة التاريخ ومهابة المعنى، فلم تعد الأسماء محض صمت يتململ تحت الغبار. شكرًا للعتمة السخية، وتلك النشيطة التي كشف نورها عن ضرورة الكوى واشراقة الضحك؛ شكرا للخلوات المؤكسدة بثاني ميتا

فيزياء الخوف والخرافات الرقمية، وأساطير الغيلان الصديقة، حيث يمضي الليل مشفوعا بنقيضه، ثم شكرا، للأطفال الأصدقاء بألعابهم الثرثارة، ودسائسهم البريئة، للصحف الجادة والكاذبة والدعية، للسفر الكارثي، للعواصف الخارجة عن قانون الريح، للزلازل والآفات المبتكرة والأعاصير المبرمجة تبعا لتخمة الكواكب الحاكمة، للشعر، للنبيذ والحليب والماء والملح، شكرًا لحروب الفضائيات السعيدة وهي تنمو بضراوة شرهة لكي تعلمنا كيف نتوق لحرائق أكثر بردا وسلا ما.

شكراً أيّها الخلص، والحمقى الأوفياء، الطيبون النبلاء، الفرسان المغاوير، الأبطال والشعراء المتمردون الطيعون، لقد اكتشفت الكثير من النقائض والإشارات، ورأيت ما لم ير.

شكراً طرابلس، كان حليب رحمتك طيبا وسخيا، وماؤك المالح لا يضاهى.

شكرا للربيع الذي كشف عيوبنا وأطلق سراح الحيوان فينا فغدونا شتاتا، وهذا من فضل الثورات الخفية، ثورات الذبح والنهب والخراب.

«شكرا للحرب، وللذين تهدمت بيوتهم وفقدوا أطرافهم ثم هتفوا: شكرا لأننا مازلنا أحياء».

شكرًا لكل الأعوام التي انقضت، والتي تأتي ولا تأتي. لكل شيء تطلقه البيوتُ والمداخن والنفايات، لرائحة الخبز والطبخ

وقهوة الصباح وهذيان الأحلام التائهة.

شكرًا لإمبراطوريات المجتمع الافتراضي كآخر معقل للمهذراين والأغبياء وهم يحصون في بلادة غريبة قوائم المتابعين ونقرات الإعجاب، فطوبى لصنّاع التوحّد وآخر مبتكرات العزلة؛ حيث العالم رهن الأصابع الطائشة وغويات الصدف الغشيمة.

وأخيرًا؛ شكرًا لكل شيء، بما في ذلك سماسرة الثورات ودهاقنة السياسة، وتجار الحروب، وحثالة الأنتلجنسيا من المناضلين الأشاوس، نهابي الفرص كآخر مبتكرات للغائط؛ والمجد لك أيتها المرأة الحبيبة التي بلمسةٍ واحدة تخترعين معجزة الحياة. شكرا للحب وكل الصدف التي هيأتني لتكريم وردة بين فخذي حياة مارقة، وللعطر كيفما كان، عابرا أو مقيمًا في ذاكرة الوسائد والصور.

طبيعة صامتة

من المبهج أن يهبك الخيال بعض رؤاه الجميلة، ومن المبهج أيضا أن تسافر مقتفيا آثار تلك الرؤى؛ لتتبع ما يشبه على نحو ما أن يكون حلما جميلا يخصك وحدك، محاولا تسقط مفرداته دونما توقف، تماما كأي كائن بشري يتوق إلى تحقيق نفسه، مؤمنا بأن مسيرة الحياة عبارة عن توق يتناسل، لذا ستحاول جاهدا إقناع نفسك بان الأحلام الكبيرة تبدأ عادة بحلم صغير؛ على غرار طريق الألف ميل التي تبدأ بخطوة، وستقول: ما ضرّ لو تتبعت لغة حلمي إلى آخر المطاف لأجل أن تكون الأوقات مترعة بالهناءة والهدوء والطمأنينة. هكذا بدأت الحكاية التي سأسرد هنا بعض تفاصيلها المضنية، وخاتمتها الخائبة، والتي بدأت معي على هيئة حلم قلق؛ فقد حدث منذ عشر سنوات أن هيأ لي خيالي النشيط بعض ما يقترفه الفقراء من أوهام اليقظة، فتخيلت بأنني وأسرتي نقطن بيتا جميلا في البراري، تحيطه البساتين بأشجارها وأزاهيرها الخلابة، وكل ما تجود به الطبيعة البكر من سحر جمالها الفتان، سحر تحفه الطمأنينة من كل جانب. حيث الخضرة والسكينة في أحضان الطبيعة الوادعة، بعيدا عن ضجة العاصمة وصداعها اليومي. هذا الخاطر يعد بالنسبة لي أكثر عنفا من مجرد حلم يتكرر. في أول الأمر لم احفل كثيرا برؤيا الوهم التي راودتني في

عشية ما، غير أن الحلم مالبث أن تكرر معي، وبدأت على نحو ما، أسخر من نفسي، على اعتبار أن المسالة برمتها محض شطحة عشواء ستفضي حتما إلى حماقات لا جدوى من تصعيد وتيرة أوهامها. فقد كنت أعتقد جازما باستحالة السكن في الريف على رجل فقير مثلي، ولاسيما إذا كان مجرد موظف صغير لا دخل له سوى مرتب محدود اقتضته لائحة الدرجة الخامسة، مرتب لم يكتف بهزاله الظاهر، ووضاعته التي تجاوزت حسابات المنطق، بل هو في حقيقته التي لم تكن خافية على أحد، يشكو من الكساح و التخلف الذهني وعديد الأمراض المزمنة التي تعيق عملية نموه وتطوره. حلمت وربما كان الحلم مبررًا ومشروعا بالنسبة لكائن بائس لا يملك في هذه الحياة سوى حفنة من الأحلام . وكم هي كثيرة تلك الأحلام التي ذهبت نسيا منسيا؛ لكن في هذه المرة قد اختلف الأمر؛ إذ وجدت نفسي أتواطأ مع مخيلتي، مأخوذا بتلك المفاتن التي يضمرها بيت متخيل في البراري. ربما لأن شقتي الضيقة التي تقع في بناية قديمة خلف جامع بورقيبة، بشرفتها الخجولة، ونوافذها شديدة القتامة، والتي تطل بحياء على شارعي" أبي العلاء المعري " من جهة البحر الذي لا يرى، و« طارق بن زياد» من جهة الفضاء المكتظ بجلبة الباعة المتجولين حيث حركة السوق وضجة العربات الموصولة بصخب لا يكف لم تعد لائقة بإيواء الموسيقى، طالما العالم تحت النوافذ والشرفات الكالحة صاخبا إلى حد الجنون. كذلك كان نقص المياه التي رغم شحّتها بدت أكثر ملوحة من مياه البحر

المتوسط، ناهيك عن غياب الأمن وانتشار جرائم السرقة، حيث بدا المكان مرتعا خصبا للمغتربين والعاطلين الذين يأتون من كل صوب وحدب.. بحيث لم يعد الواحد آمنا على نفسه ولا سيما في الليل. لهذا تضافرت كل المحرضات لتكريس خيال بالغ الثراء في وضع معيشي شديد البؤس والفاقة. وبما أن تأثيث حلم صغير في عالم متعسر يتطلب دربة على مكابدة المستحيل؛ بدأنا على نحو ما نفكر جديا أنا وزوجتي في إيجاد مخرج ينقذنا من براثن ذلك الجحيم اليومي الذي لا يطاق . قُل بأنني تدبرت بطريقة عجيبة ثمن قطعة أرض صغيرة بضاحية ريفية متاخمة لطرابلس؛ بعد أن أستلفت من الأصدقاء والأقارب والمصارف وبعت مصاغ زوجتي، وتحايلت على مصروفنا اليومي، لنمر بفترة مضنية من الفاقة والتقشف والضنك وسوء الحال. قل بعد فترة قد غادرت الشقة إلى بيتنا الريفي، الصغير جدا، والذي لا تتجاوز مساحته تسعين مترا مربعا؛ بعد أن أكملت المرحلة الأولى من بنائه بأعجوبة تشبه حكايات الأساطير العتيقة. بالطبع لم أتمكّن من تشطيب البيت بشكل نهائي؛ فقد اكتفيت بالهيكل العظمي الذي استغرق بناؤه أكثر من ستة أشهر حتى تدبرت ثمن الطوب والأسمنت والحديد، وستة أشهر أخرى من أجل (الملعقة) واقتضى الأمر أربع سنوات عجاف حتى نتمكن من تأمين ثمن البلاط و الأبواب والنوافذ. لذا وبحكم الضرورة سكنت أنا وأفراد أسرتي الصغيرة كيفما أتفق، حيث اشتريت عشر دجاجات لتوفير البيض واللحم، وزوجيّ حمام، لاستعادة مرح

الطفولة الضائعة، وربما طمعا في تكاثرها، وبيع بعضها كلما ضاقت الأحوال وازدادت سوءا. قل أنني تمتعت بجيران طيبين، وقل أيضًا بأنني في أول الأمر قد ابتهجت كثيرا بخلوتي المحلوم بها، ولكن الفرحة لم تكتمل؛ فعادات الريف تقتضي أن أكون على صلة دائمة بجيراني، الذين اكتشفت فيما بعد بأنني مطالب بتفقد وزيارة معظم سكان المنطقة الذين قدموا لمباركتي والتعرف علي كجار جديد، ليمطرونني بأسئلة فضولية عن أصلي وفصلي، وطبيعة عملي ونوع سيارتي، وأصول عائلة صهري، وعمل أشقائي وأعمامي وأخوالي. قل أنني كنت ملزما وبطريقة شبه يومية بتوقّع مفاجآت لا عديد لها، حيث تعيّن علي استقبال ضيوف لا اعرفهم، وفي أوقات لا ضابط لها. فإذا ما شرعت في ترميم حظيرة الدواجن أو الحمام أو إصلاح هوائي التلفاز، أو معالجة مضخة المياه؛ فلن تمر بضع دقائق حتى يتقاطر علي الجيران بدعوى عرض المساعدة، وتقديم يد العون، ضمن مقدمات مكررة من الديباجات التي صرت أحفظها عن ظهر قلب، تنصب تحديدًا على أدبيات الجيرة التي توصي بسابع جار. وهكذا تبدأ رحلة أكواب الشاي وفناجين القهوة، وتجاذب أطراف الحديث حتى وقت متأخر. وقل إنني جاملت وسايرت جيراني الطيبين جدا حسب مقتضى الحال. ولكن الطّامة تكمن في أنني لم أجد الوقت الكافي لكي أبادلهم الزيارات وحضور مناسباتهم التي لا تنتهي أبدًا، ففلان تزوج وعلان تعرض لحادث سير، وأبن الشيخ مخلوف سقط من سطح المنزل فتكسرت أضلاعه، وزوجة

جار جارنا الرابع والعشرين أجهضت وهي تطارد عجلا شاردا. وآخر قدم من الحج؛ ناهيك عن المآتم والأعراس والطهور ومشاكل المرور. قل يا سيدي بأن أهل البلدة قد ازدروني وكرهوا سحنتي بعد أن تبيّن لهم بأنني كائن متقوقع، غير مكترث بتقاليدهم، واعتبروني مخلوقا متكبّرًا أو غامضا أو متعجرفا وهلم جرا. قل أن زوجتي المسكينة هي الأخرى - رغم عللها - وجدت نفسها محط أسئلة ماكرة تلقي عليها بالعتب واللوم، كذلك تعرض أطفالي إلى كثير من السخرية في المدرسة من طرف أقرانهم الذين ينقلون حرفيا ما يكرره أهلهم بشأن انزوائنا عن الناس. المشكلة إنني حاولت كثيرا في أول الأمر احترام تقاليد أهل الريف؛ ولكن علاقتي الخاصة بالكتابة وما تتطلبه القراءة من خصوصية، حال بيني وبين الاستمرار في تفقد أخبار الجيران ومواصلة زيارتهم لاسيما في الأحداث والوقائع التي لا تنقطع مناسباتها. على أية حال اكتشفت أن حياة الريف لها تقاليدها الاجتماعية الصارمة، التي لا تعترف بتقاليد الكتابة. وأنني قد فشلت تماما في إخضاع نفسي لمصالحة هكذا تقاليد مملة ومضرة بالنسبة لي؛ لأنها تأتي على حساب وقتي، وتربك انشغالي بعملي، وتشتت تفكيري. كذلك قد كان عليّ أنا وأفراد أسرتي أن نتكبّد مشقّة المواصلات، فبعد أن تآمرت علينا سيارتنا الخردة التي يبدو أنها قد وصلت إلى سن هرمة، لا تسمح لها بمواصلة الرحلة معنا؛ عندها عانيت الأمرين، وارتبكت علاقتي بوظيفتي، وبالمثل ارتبكت علاقة أبنائي بمدارسهم، حيث يتعذر في ذلك المكان أن تمر

سيارات الأجرة أو أي صنف من وسائل نقل الركّاب.. وهكذا صرنا نفكر بعشرين طريقة في مسألة جلب الخبز من الفرن فما بالك بالانتظام الوظيفي أو المدرسي. وإزاء هكذا أحوال متردية وسيئة؛ فقدنا راحة البال، وساءت أحوالنا المعيشية و النفسية. قل يا سيدي أنني بعد لأي، ومكابدة جديدة غادرنا الريف غير آسفين بعد أن أمضينا قرابة ثماني سنوات طوال من القساوة العجيبة. التي لم ننعم خلالها كما كنا نحلم بذلك الجو الرومانسي الجميل. نسيت أن أذكر بان دجاجاتي العشر قد ألتهمتها كلاب جيراني الطيبين. وأن اللصوص قد اقتحموا بيتي الصغير وسرقوا التلفاز الوحيد الذي نملكه، ومسجلة (الفيديو). ويبدو أن طمعهم قد تضاعف في مرات لاحقة فعاودوا الكرة مرارا وتكرارا . فكانت آخر مفقوداتي: اسطوانة غاز، وإطار سيارة وبضعة بطاطين جديدة إضافة إلى دراجة طفلي الهوائية. لذا بعت المنزل بأقل من ثمنه وعدتُ لائذا بالمدينة التي فقدتها، باحثا عن الأنس والطمأنينة في ضجيجها الأكثر رحمة من قساوة ألريف الذي لا يشبه ريف الأحلام في شيء. وكانت تلك حماقة بالغة الطرافة والتطرف، دفعنا أنا وأفراد أسرتي الصغيرة ثمنا فادحا لخوض مغامرتها الطائشة؛ ألم اقل لكم بأنه لا توجد أحيانا مسافة فاصلة بين الأحلام والحماقات.

الفئران تعقد مجلسا

١

تقول الحكاية: أن الفئران عبر تاريخها الطويل ظلّت رهينة قلق مزمن وخوف غامض، لا خاتمة لمطافه، مما جعلها تقف مكتوفة الأيدي، إزاء تلك المعضلة التي كما يبدو ستؤرقها إلى أبد الآبدين، وهذا ما سنعرفه بعد قليل عبر سرد هذه الحكاية التي ندين بجزء من نسيج قماشة فصولها الدموية لعبقرية الشاعر الفرنسي لآفونتين، الذي صاغها بنكهة فرنسية بالغة الطرافة، تختلف بالطبيعة عن مذاق توابل المعلم الهندي بيدبا؛ ذلك لآن الفئران التعيسة في خرافات لافونتين لم تجد مخرجا يخلصها من قدر الهلاك المتربّص بها ليل نهار، وقد انبرى القط المتوحّش في تصعيد وتيرة اعتداءاته الغاشمة من دون أن يترك للمخلوقات الضعيفة أية سانحة للهناءة وراحة البال، لأنها بدأت فقط تنتظر مصيرها الغامض الذي يأتي بهيئة غارات مباغتة وكمائن بالغة الغش والتحايل، ولم تجد أيما حل يمكنه أن يخلصها من هذا الرعب اليومي، لذا قرر حكماء الفئران عقد الاجتماعات الطارئة التي ما انفكت تنتظم مجالسها المرتبكة بين مجزرة وأخرى قصد إيجاد سبل تضمن في حدها الأدنى إمكانية استشعار الخطر قبل وقوعه بلحظات تكفي لأن تختبئ الفئران السيئة الحظ في جحورها. هكذا وبعد مداولات ومشاورات توصلت عبقرية حكماء الفئران إلى تعليق جرس في رقبة القط، حتى تتمكن من سماعه إذا ما قصد مهاجمتها . وكانت هذه الفكرة محل احتفاء

من أمة الفئران، التي اعتقدت بأنها قد قبضت أخيرا على بيت القصيد، وعثرت على الحل الذي يقيها من براثن القط المتوحش، لكن الفرحة لم تدم طويلا، لأنه ما من أحد كان في مكنته الاقتراب من القط، وتعذر إيجاد الفأر الشجاع الذي يتكفل بتنفيذ هذه المهمة الخطرة، وكان السؤال الذي يتردد طيلة الوقت هو : من يجرؤ على تعليق الجرس في رقبة القط؟ هذا هو اللغز المحير، وقد تسلط بعنجهية متغطرسة، ما فتئت تقض مضجع سلالة هذه الكائنات غير الكريمة، طالما وجدت نفسها رغمًا عن أنفها وأنف أبيها ترزح تحت ثقل خوف أسطوري لا فكاك منه، بعد أن عدمت أرحامها إيجاد المنقذ الذي في مكنته وحده تعليق الجرس. ومنذ ذلك الحين الذي عجز جميع مؤرخي الخوف عن تحديد إشارة واحدة تدل عليه، انشغلت امة الفئران بعقد المجالس والاجتماعات العادية والطارئة، للحكماء والخبراء، وكبار رجالات السياسة وجنرالات الجيش ،ودهاقنة ومدراء المال، ولكن بقدر ما كانت الاجتماعات تتراكم كان القتل هو الآخر يترك على الضفاف النازفة أشلاءه ممزقة بوضوح شديد اللمعان بين جهات الخراب، وما من احد يجرؤ على تعليق الجرس. لهذا اقتضت هذه الحكاية في طبعتها المعاصرة، إضافة عديد النكهات الجديدة لتكون أكثر انسجاما مع روح العالم الجديد، وديمقراطية القتل التي تتسع لإيواء دلالات أخرى أعنف أثرا، وأشد هولا وغرابة، لأن ضرورة تعليق الجرس لا تضمر هنا فعل مواجهة غير متكافئة بين صواريخ غادرة، لا أحد في مكنته حدس قواعدها، ومواقيت انطلاقها، وبين براءة أطفال يصطافون على شواطئ وطن يفترض أن تكون آمنة، وعلى مرأى من أنظار العالم الذي لم يحرك ساكنا، بحيث غدت مشاهد قتل الأطفال مادة تلفزيونية، لا تتعدى

حدود الفرجة وبعض بيانات الاستنكار الخجولة. وفي حكايتنا يستعير الجرس كمطلب أمني، دور صفارة إنذار في مكنتها أتاحت سانحة قصيرة جدا للاختباء، باعتبارها محض منبّه يشير إلى خطر قادم. قد يهب الأطفال والنساء والشيوخ فرصة أخيرة لأن يلوذوا بأقرب حفرة أو ساتر ترابي يقيهم شظايا القنابل، وهو مطلب مشروع، وحق طبيعي، لا يحتاج إلى قرار معتمد من عصابة الأمم؛ لكن من يجرؤ على تعليق الجرس؟

2

في حكاية أخرى نجد إشارة شبيهة في ما رواه الشاعر بوشكين بنكهة روسية، في إحدى خرافاته النادرة، حيث تشي الوقائع بمأزق آخر للخوف. تقول الحكاية والعهدة على بوشكين: في قديم الزمان حدث أن الإمبراطور السامق، حاكم إحدى الممالك النائية لم يعد سامقا كما كان، بل أمسى شيخا هرما، وفريسة سهلة لبراثن الزمن الخائن، الذي احدودب ظهره؛ فكيف وهو المبجّل ذو المهابة والسمو، والذي كان في ما مضى شديد البسالة والإقدام، فارسًا مقدامًا لا يشق له غبار، يغدو عاجزًا عن حماية مملكته المترامية الأطراف، بعد أن بناها على دهر صاخب من الحروب الطاحنة، والغزوات الساحقة، وهذه الحكاية تستقي حكمتها من ذاكرة الخوف، حين تتفاقم آلة صنّاعه إلى الحد الذي يغدو فيه الهلع وسواسًا ينمو من دون أن يقيم وزنًا لمهابة الرجال العظماء حتى ولو كانوا أباطرة وملوكًا، ربما لأن الشيخوخة غالبًا ما تفرض منطقها الواهن الذي لا فكاك من ذلّه ومهانته، وربمّا هي الرياح كما يقول المتنبي قد تأتي بما لا تشتهي

السفن، وربما أيضا هو قانون الغاب الذي يعطي الحجة للأقوى، فها هي الكوارث تنذر بعواصف الخراب، لتهبّ من كل حدب وصوب. فحين وجد حكام الممالك المجاورة في شيخوخة الإمبراطور سانحة نادرة للانتقام من خصمهم اللدود، أخذوا يهاجمونه دونما هوادة، حتى اضطرب الإمبراطور وتصدعت دعائم عرشه، ولم يعد لحظتها يعرف كيف يتهيأ لمواجهة أعدائه الكثر، والدفاع من ثم عن مملكته التي أضحت نهبا للقراصنة، وهدفا سهلا للغزاة الطامعين، الذين تكالبوا على نهب ثرواتها وتمزيق خرائطها. فلم تعد الحيلة تجدي نفعا؛ لأن الإمبراطور الهرم، ما يكاد يستنفر فيالق جيشه باتجاه الشمال، حتى يباغته القراصنة من الجنوب. وعندما يتوقع الحرب على اليابسة، يفاجئه الأعداء من البحر. وظل هكذا ردحا طويلا من الزمن الخؤون، حتى تضاعفت الأهوال وتردت الأحوال في برهة غادرة لم تفلح معها توقعات المنجمين ووصايا الشيوخ، وحدوسات السحرة. فدائما كان العدو يأتي خلافا لاحتمالات أهل الفلك؛ لكن الشاعر وحده حين مثل أمام الإمبراطور قدم اقتراحا غريبا، أثار سخرية الحاشية في المجلس الإمبراطوري، فمن يعقل أن تعهد حراسة الإمبراطورية إلى مخلوق ضئيل، غير أن الإمبراطور وحده قد حدس شيئا ينمو في فكرة الشاعر، واستأنس أن يعمل برأيه، لأنه قد شعر بشيء خفي يلوح في الأفق، وينقذه من خيبته، ويعيد إليه بعض توازنه وهدوئه، فقد تلخصت فكرة الشاعر في الاستعانة بموهبة الطائر ليكون بمثابة رادار في هيئة ديك معجزة، لا يلزمه سوى أن يوضع فوق أعلى برج من أبراج الأمبراطورية الشاسعة حتى يؤكد وبلمح البصر، وفق حدس لا يخطئ تحديد اللحظة والجهة التي سيقبل منها الخطر. وعندها ليس حيال السادن الذي لا ينام إلا أن يترقّب دون كلل أو ملل

صياح الديك الأعجوبة، ويرصد الجهة التي ينظر إليها الديك. لكننا، وبغض النظر عن الأخطاء المطبعية ونزاهة حبرها الطيب المذاق، يمكننا هنا، ومن دون أية مواربة أن نتساءل: كم رادارا قد يحتاجه الحكام العرب لرصد جهات الخوف، وقياس طقس الخيانة، وتحديد مكامن العدو، ومواقيت الغزو، وحدس الأيدي التي تدبر الطعنات الغادرة؛ ليس لحماية إمبراطورياتهم الهشة، وإنما للحفاظ على عروشهم وقصورهم وأرصدتهم المالية المترامية الأطراف، لأن الخطر خلافا للحكايتين السالفتين، قد يكمن أيضا في الداخل، لأننا لا نعدم في غياب القط أن يتقمص أحد الفئران السمينة لعب دور القط، كذلك يمكننا أن نتوقع الكثير من الانقلابات لحظة أن يهرم الأسد، ويمسي ضعيفا وبائسا، إلى الحد الذي لن يكون في مقدوره أن يكون ملكا مهابا يفرض سلطته على كائنات الغابة، التي قد تتطاول أصغر مخلوقاتها، وأكبرها خسة وضآلة في الانقلاب عليه. هكذا لن يكون الكبير كبيرا حين يفقد سلطانه، هذا هو السر الذي يجعل الحجّة دائمًا في صالح الأقوى.

حوار في غرفة نوم

- **هل** أنت مستيقظة

- أجل يا عزيزي، فلا أحد في وسعه أن ينام في مثل هذا الوقت من الخوف المزمن، فما من فأر واحد في مقدوره تعليق الجرس في رقبة القط.

- لكنّي أسمع أنفاسك وأنت تنظرين إلى السقف وتخطئين في عدد القنابل الذكية والنجوم الميتة.

- أنت دائما تفترض حروبا طارئة لكي نتشاجر، فما من نجوم يمكنها أن تقترح كهفا منزويا خارج التاريخ، أنت تهذي من شدة الخوف، هذا كل شيء.

- ولكن ها أنت، كعادتك دائما، تدعين الشجاعة، بينما كلماتك ترتعش؟

- أنما أنا أحلم الآن. ألا يحق لي أن أحلم في هدوء، أرجوك أنظر إلى أي شيء تراه جميلا، أو أدعو الله أن يهبك حلما جريئا.

- كيف سأحلم وأنا مستيقظ، منذ زمن لم أذق طعما للنوم، ولهذا أنا أكره اليقظة لأنها تسهم في ازدرائي، واكرهك، وأكره نفسي، وكم أشتهي أن أهرب بعيدا عنك .

- ماذا فعلت لك حتى تبغضني هكذا وتنغص علي التمتّع بمباهج

يقظتي المستنفرة .. الأنك تعاني من الخوف تريد العالم يشاطرك هذه الفوضى الليلية والصداع الذي ما تفتأ تشكو منه طيلة الوقت، دعني أحلم أرجوك.

- أنت وقحة ..

- شكرا

- أنت مقززة وكريهة وسافلة ولا تستحقين أن تكوني زوجة رجل مثلي.

- أعلم ذلك منذ نهاية السنة الأولى من زواجنا ولكني الآن أنا أحلم.

- بماذا تحلمين؟.

- أشياء يصعب تصديقها .. أرى أنك بت أقل وضاعة وهذا يبهجني، على الأقل أنا لم أصنع هذه التفاهات التي تطلق عليها لوحات سوريالية، أنت مجنون دون ريب، أجل؛ ولكن لست أدري كيف خطر لي الآن بأنك تبدو بائسا منذ طفولتك الأولى، فها هي أمك تضربك على قفاك وتطردك خارج المنزل، لا بد أنك ارتكبت فعلا مشينا، وهاهم الصغار يرمونك بالحجارة وأنت تصيح مثل جدي أملط. عليك اللعنة كم تبدو مضحكا في طفولتك وتثير شفقة المارة، وتقززهم، لأن مخاطك يسيل مدرارًا من فتحتي أنفك، فتشفطه بلسانك، من دون أن تترك لزوجتك المسكينة فسحة هانئة لكي تحلم بهدوء.

المليونير

عثر رجل على كنز في قاع البحر، كان مجرد حارس ليلي لمنارة ميناء بلدة جبلية صغيرة تقع على ضفاف المتوسط. كان ليلتها مفتونا بشيء يجهله، فخضع لنشوة السكر، وزهاء القمر بدرا، وغطس بشغف في قاع البحر، حينئذ لمح بريقا ذهبيا ينعكس على ضوء القمر، فأمعن النظر لهنيهة مخطوفا بلمعان ذلك الشيء الذي لم يكن غير سبيكة ذهبية ما كاد ينتزعها من مكانها حتى كشفت عن صندوق معدني مخلّع امتلأ لحافته بسبائك شبيهة. لهذا لم يعد الحارس الليلي حارسا، فقد تضافر الذهب والخيال وشغف الحياة في صناعة الأسطورة ليجتمع الثراء وأبهة القصر وفن البذخ في لحظة واحدة. ولأن الخيال هنا قد فرض مشيئته فتحول إلى واقع مدهش غدا على أثره الرجل المليونير هو رجل عصره بعد أن استقطب الأضواء كلها ليصبح محط أنظار الناس ومحور حديثهم؛ فهو وحده من يحتكر صناعة الأحداث الغريبة والوقائع المثيرة. فبعد أن امتلك القصر والزوجات الأربع إضافة إلى أسطول من السيارات الفخمة والخدم والسائقين، بادر بإنشاء أكبر مطبخ في تاريخ المملكة ليولم كل أسبوع المدينة بأسرها ناهيك عن ملاذات شاسعة لإيواء المشردين والأيتام والأرامل وعابري السبيل، ولم يبق من طموح أمامه سوى الاستجابة لمحرضات رهطه المشجعة على ترشيح نفسه في مجلس نواب المملكة. ولأن للمال سحره وسلطته،

جمع الرجل بعد نجاحه المبهر في الانتخابات بين الثراء والوجاهة . لكن المال ظل يتناقص يومًا بعد يوم، والمليونير لم يشأ تغيير عاداته ولاسيما وليمة الأسبوع الحاشدة التي كان يقيمها كل مساء خميس لسكان البلدة. لذا وجد نفسه مضطرًا في أول الأمر للاستغناء عن مزارعه وعقاراته، ثم سعى لتقليص أسطول سياراته، كما صرف اكبر عدد من الخدم، لينسحب الأمر من ثم على زوجاته الأربع إلى أن فقد كل شيء ولم يبق في حيازته غير قصر فارغ، كان الاستغناء عنه هو الآخر أمرا محتما؛ ليلوذ في نهاية المطاف بمنزله القديم، وما من شيء في حوزته غير أكداس من الصور والذكريات. وهكذا عاد الرجل الوحيد وحيدا، ولكن ليس كما كان، لأنه قد تعذر عليه العودة للعمل كحارس ليلي لمنارة الميناء؛ فقط كان يقبل في صمت وعلى مضض أخذ الإعانات من سكان البلدة كالطعام والثياب وعلب السجائر. اقترح صديقي الشاعر أن يجري حديثا مع المليونير وتحويل حكايته إلى رواية أو عمل سينمائي، فاخذ مسجلته وأوراقه وذهب إلى بلدة المليونير. بعد سنة مات المليونير؛ لكن الشاعر بعد أن أجرى سلسلة من الأحاديث مع المليونير، قد اختفى، يقال بأنه قد عبر البحر بحثا عن الكنز. هذه الحكاية يمكن العثور في مدينة سوسة على بعض نسيجها، فثمة هناك من يتذكر أمر المليونير، ومأساة الشاعر الذي اختفي في ظروف غامضة. يحكى أن بعض أغراض المليونير مخبوءة في مكان ما، كذلك ما تزال أم الشاعر وحدها تنتظر اللحظة التي يطرق فيها الباب.

مشيئة اللصوص

صاحبي الذي تعرض منزله للسرقة؛ ما كاد يعرف أن السارق من بين سكان شارعه؛ حتى أرغى وأزبد وهدد ووعد رافعا أمره إلى مركز الأمن الشعبي مدفوعا بتحريض احد الجيران الذي أكد رؤيته للسارق أثناء خروجه متسللا من نافذة منزل صاحبنا، مبديا استعداده في حماسة لا تنقصها الشجاعة للإدلاء بشهادته أمام القضاة لكن الأمر ما لبث أن انقلبت موازينه لتأخذ القضية منعرجا فاترًا حيث خرج المتهم بريئًا براءة الذئب من دم يوسف؛ بعد أن اعتذر الشاهد الإدلاء بشهادته تحت تأثير ضغوط خفية ومريبة، كذلك لزم الجيران الذين كانوا من قبل أكثر تحمسا واندفاعاً من صاحبنا لمعاقبة اللص جانب الانحياز والصمت ليجد صاحبنا نفسه يخوض في متاهة شائكة تفاقمت تداعياتها وتكدست مشاكلها إلى حد كاد معه أن يفقد عقله لان أهل اللص وصحبه قد قرروا الانتقام من صاحبنا بطريقتهم التي لا تعوزها أسباب الخسة والدهاء؛ حيث تحولت واجهة منزل صاحبنا فجأة إلى مكب قمامة. وبدأت سيارته تفقد كل يوم جزءا من أطرافها وأعضائها فساء هيكلها وفقدت بهجتها وعانى أطفاله الأمرين من أذى أطفال الجاني وأصبح طريقهم إلى المدرسة لا يخلو من المخاطر والمنغصات وذات صباح وبينما كان صاحبنا يتجه ناحية

سيارته؛ وإذا به يجدها كسيحة بلا إطارات بعد أن انتزعت عجلاتها ووضع محلها قطعًا من طوب البناء. فثارت ثائرته وولول وصرخ دون جدوى. وفي غمرة غضبه قرر أن ينتقم فتأبط ذات ليلة خنجرًا وكمن في الظلمة متربصا عودة اللص إلى منزله؛ لكن اللص الذي لم يظهر في تلك الليلة أتاح لصاحبنا أن يحاور نفسه قليلا ليصل من خلال منلوجه الداخلي إيجاد حل حاسم يضع حدا لهذا العبث . ولم ينقض أسبوع حتى (ترك) صاحبنا منزله وانتقل إلى حي آخر وعلى الفور حصن منزله الجديد بشبابيك وأبواب من حديد وزود أبواب ومرآب سيارته بأقفال متينة، واثر أن يتعامل مع جيرانه الجدد بقدر من الحيطة والحذر ولكنه لم يكن مطمئنا بوجود بعض الفتية العاطلين الذين لا يبرحون زاوية الشارع - وازداد توجسه وقلقة بعد أن عرف بأنهم شلة سوء - وذات يوم حين فقد صاحبنا اسطوانة غاز فارغة كانت مركونه بجانب حديقته - لزم الصمت ولم يثر أية زوبعة وكأن شيئا لم يحدث - حتى بعد أن اخبره الجيران بمعرفة السارق وانه احد أفراد شلة السوء وهو يعرض اسطوانتة للبيع لم يحفل صاحبنا بالأمر بل سلك مسلكا غريبا في تعامله مع شلة السوء مبادرا بكل مرة يمر بجانبهم بإلقاء التحية وهو يبتسم لهم متوددا ولم يتردد في إهدائهم بعضا من علب السجائر الفاخرة متعذرا بأنه قد ترك التدخين. وفي مرة أخرى اختلى بأحدهم ومنحه عشرة دنانير لكي يدبر بها شانه وظل صاحبنا في دأبه على ملاحظة

هؤلاء الفتية اتقاءً لشرهم - وهو يدرك تماما أن التنازل عن عشرة دنانير بين الفينة والأخرى قد تساعد هؤلاء الفتية على تدبير ثمن السكرة أو السطلة وهي اقل ضررا من استعدائهم؛ وقد صرح لي صاحبنا بأنه لم يعد يخشى أذى اللصوص وبات اقل احترازا في قفل الأبواب والنوافذ - بل أحيانا يترك سيارته ليلا خارج المرآب وهو على ثقة بان لا احد يجرؤ على سرقته؛ فقد عقد ميثاقا مع حراس يقظين من اللصوص الأوفياء.

تأويل الألف

تعد الحكاية حلم توطين، ليكون السفر داخلها لا خارجها، هكذا هي تبعا لألف ليلة وليلة وشقيقاتها: شهرزاد تسرد التاريخ السرّي للجسد / شهريار يصغي بتأويل من يكتب لحظة أن يتعقّب المعنى بفحولة/ شهريار يسافر / شهرزاد تقيم / المفارق هنا يشير إلى برزخ ما بين الظل والضوء:

شهرزاد تخفي نفسها عبر الحكاية، بينما شهريار يعريها بتلذذ.. وإذا كان الموت سفرا حيث لا أين بعد الفناء، فشهرزاد تتوطّن حيث لا بقاء بلا منفى، المنفى داخل الرحم عبر التحقق بوجود الجسد التاريخي الذي يروّض بلاغة سرده في الليل، فما الحكاية هنا سوى ضلع صغير في لعبة التأنيث، تأنيث اللغة وإنقاذها من استبداد الذكورة صانعة الحدث والبطولات والقوانين والحروب والإمبراطوريات، غير أن لحظة الإصغاء بالنسبة لشهريار تعد فعل كتابة بقلم الفحل؛ أي إننا إزاء تجاذب بين الأنوثة والذكورة، السكن والرحيل، الحياة والموت حيث كلاهما شرط الآخر وروحه، يوجد بوجوده، ويتجسد مأموله من خلاله وبه. شهرزاد: السكن، الجسد، الرحم، الوطن. هي ميكانزم دائم الحركة في دورة استدراج الحياة وتأكيدها، وبالمقابل يتمحور شهريار داخل السرد، وان رام التبختر خارج نسيجه، مدركا بأن

الأنثى (شهرزاد) تستأنس لعبة المواربة خلف سجف من حكايات تتناسل وتنمو وتنتشي، وتتخفّى وراء ضباب خرافات لا تكف عن اجتراح تداعياتها. هكذا تُحقِّق استقرارها عبر تشتيت الملايين من الكلمات المنبوذة، تنكش أكوامًا من الوقائع والأسرار المحرّمة لكي تغلف ببراءة الأنثى مظانها ومرامها ومأمولها، تستدعي ما لا يحصى ويعد من المحكومين بالفناء لتؤجل بإيقاع واثق لحظة فنائها، لعلها توقع الذكر في شراكها، سعيا للخصوبة والنماء، لا القحل والجفاف؛ لكن اللعبة هنا لا تخلو من متاهة المغامرة، لهذا يكون مصير الرحالة في معظم خواتم ألف ليلة وليلة، فاجعا وتراجيديا، ونهايته غامضة ومجهولة، الرحالة الذي يوجد داخل الحكاية، قد يُغَيّب حينا لصالح أن تظل شهرزاد حية وذكية ونشيطة خارج الحكاية وداخلها. شهرزاد وحدها التي يتعذر هنا القبض على حقيقتها، وهنا يكمن سحرها وجمالها، فهي دائما منطقة برزخ، وبقدر سطوعها ومثولها الحاضر ببهاء له عنفه ومثيراته، تشي في الوقت نفسه بجسد من سديم، وبإعجاز التلاشي. كائن يمكن للوهلة تطويقه والإحاطة به، وفي اللحظة ذاتها يتعذر الإمساك به. هذا ما يهب صيرورة حياة اللغة، تحريرها من هيمنة الذكورة، عبر تأنيثها. وسيظل المجهول والغامض تبعا لحكايات شهرزاد هو ما يكفل صيرورة السرد، واستئناف كتابة الحياة.

كتاب

لم يكن ذلك الكتاب سوى حزمة أوراق تعاني سحنته من غزو النمش والبثور والتجاعيد، لا غلاف له يستر عريه ويدفئ برودة جوفه، أو عناوين أو أسماء أو تواريخ تشير لمؤلفه وتدلّ على منشئه وأصله وفرعه ،حتى أرقام صفحاته قد تلاشت، وذهبت مع الحواف التي قضمتها قوارض العزلة حيث قدر لي في يوم طائش من الشهر الثاني في الحساب الشمسي حين دخلت بمحض الصدفة العابرة إلى ذلك النفق المهجور، والذي يعود إلى عهد الاستعمار الفاشستي، لأجده محشورا بين أكداس المهملات، منبوذا وحزينا وضامرا، ليس فيه ما يغري البصر، أو يغوي الخيال لكي يستحق حتى مجرد أطالة النظر إلى هيئته البائسة، لذا لم تراودني لحظتها أية رغبة في لمسه، ولكن بعد أن أوليته ظهري استبدّ بي خاطرغريب يحرضني بصيغة أمر صارمة تعذّر علي لحظتها لجم شفقتها، تحثني بصلابة غامضة على إنقاذ ذلك التعيس من مصيره المنكود، فانتشلته من منازل القتام، حيث كان علي بعدها أن أسلخ جزءا من حلمي في معالجة إعطابه، وترتيق عبارته التي تمزقت، لأضفي عليه نضارة وبهجة تفوّقا على توقه، إلى أن صار مخلوقا ورقيا جميلا يليق به أن ينتسب إلى عائلة مكتبتي الأثيرة، كمصنف نادر لا يُضاهى. لكن ها هو

أخيرا يعبّر عن جحوده بطريقة ماكرة حين يتعمد تنغيص هناءتي، وتشتيت أفكاري بتغوّله وتوحّشه، وافتتانه الخادع بسلالته التي لا أثر لها. فأينما أضعه يزوغ عن بصري: روح شريرة، تطلق أشباحها في أرجائي لتثير فزعا وهلعا في نفسي، حتى انقلبت هناءة المقام إلى رعب يومي لا يطاق، يعلن عن مكائده بهيئة كوابيس تتكرر في يقظتي ونومي، وكأن كتابي صار يخطط بمكر لنفيي خارج مملكتي ليستأثر وحده بمتع الخيال والسفر، ربما لأنه قد سأم من ولعي به، وغيرتي عليه، والتي أجبرتني على ضرورة إخفائه عن أعين الآخرين مخافة أن يلحّ أحدهم في استعارته، باعتباره الكتاب الأثير الذي أخشى عليه من مغبّة النظر، لهذا كنت أحتفظ به في أمكنة آمنة من أرفف القلب، حتى يكون في منأى عن فضول الآخرين، ورغم ذلك ما انفكّ هذا الكائن يكرر تمرده على مشيئتي، والتحرر من ولهي به ليحلّق بعيدا في سماء غير سمائي، بعد أن صنعت له أجنحة من ريش محبّتي . لكأن بعض الكتب أبلغ تعقيدا وشراسة من سلالة بني آدم حين تتفنن في قسوة الانتقام. لهذا بعد أن أضنتني رفقة كتابي سيء الذكر، الذي صغت مستقبله من تعبي، ورويت أحلامه من نسغ محبتي وعصير مخيلتي، بدأت الآن أفكر جادا في تركه لتقلبات مزاجه النكد، بعيدا عن جموح شغفي به، حيث يقتضي مني فقط، بين الحين والآخر تذكير فخامته بوطنه الأم، أعني ذلك النفق العطن الذي قادتني إليه صدفة غاشمة، مازلت حتى الساعة أحمل وزر لعنتها.

لعلكم تستغربون غرابة حكايتي المحزنة، لكن - صدقوني - هذا ما يحدث حين تتواطأ خطفة شغف باهتياج محموم، جراء توهمها التماعة بصيص علّه يغمرها بطمأنينة الوجد، وبهاء المعرفة. إنها جريرة برزخ بين حلم ونقيضه، لاسيما في غياب المؤلف كمجاز للعقل، أعني أنه في البدء ما من شيء، كان يدلّ على كتاب عار، بعد أن فقد جلده وذاكرته، بحيث تتعذر معرفته إلا تخمينا بأنه محض رواية بائسة لمؤلف مجهول تعوزه الدربة. لكن كما اعترفتُ لكم قبلُ، أثار هذا الكتاب الملعون غوايتي، كما لو أن امرأة وحيدة كانت تتخفّى في جثة متنه، امرأة كما يبدو ترتدي شكل شجرة عطشى أو عشّ مهجور، أو هي تخطّط طيلة دهر لتغيير عالمها، لكأنها مقبلة على ارتكاب جريمة ما، لا مجرد امرأة تحلم. وهذا أيضا ما هيّج شغفي في بداية عهدي به، ولاسيما أن الوقت ليل معزول، ومكتبتي وحيدة، وأنا أيضا. كان النوم يفارقني، لحظة أن اقترحت بمرح أن تكون المرأة أنيستي، أعني الكتاب، فلعلنا معا نترع الخواء ونجعل الليل أقل برودة ووحشة وسأما؛ ولأن الصفحات الأولى كانت منزوعة، قنعت قراءتي أن تنطلق بدءا من الصفحة الثالثة والأربعين.

لم يراودني في أول الوله أيما قلق حيال الذاكرة المتخفّية بمسافة اثنين وأربعين صفحة ضائعة، وقلت لا بأس، فلا حيلة لي سوى أن أغضّ الطرف عن ماضي هذه الحكاية مكتفيا بالهنيهة الحالمة التي أنا فيها، ولا حاجة بي لنكش مطامير خلت، وسأفترض مستأنسا بما غمرني من فيض التحنان أن ما تلاشى من ذاكرة الكتاب؛ لا

يعني الكثير طالما في مكنة أنيستي أن تنسج نفسها على طريقة شهرزاد؛ لاسيما وأنها في أول الأمر قد بدت تتلطف تحببا لتشملني بابتسامة لافحة بالودّ ونظرة مغوية أحسست على أثرها أن جدراني انفتحت عن حشد من أجنحة حارة تخفق في صدري، مدركا بأنه قد آن الأوان لنفير الربيع العاشق. ولأنه ما من أحد غيري في تلك الصحراء القاحلة، يليق بتأدية هذا الدور الذي لا يقتضي سوى فنّ الإصغاء، ألفيتني مستسلما لسحر السرد، ملبيا كل ما يمليه خيال كتابي في ملء كهوف الوحشة التي تركتها الصفحات الضائعة. وحين رسمت أنيستي في أول الأمر طائرا خرافيا يخترق سماء مترعة بالغيوم أومأت لها بأنني قد فهمت. وهكذا سافرنا معًا إلى بلاد عتيقة تشبه سمرقند، وتجولنا عبر بساتين مضمخة برياحين حدائق الله. ونمت في تلك الليلة نوما هانئا بين أحضانها وقد تخللتني رؤى فاتنة. لكن في الصباح التالي استيقظت فزعا على صوت ما يتكسر، لم يكن ذلك سوى مقام الروح؛ إذ ألفيتني محض رفات ظلّ، وأن بحار النور والعواصم والأحلام والقصائد وكل أسماء الألفة قد نأت بعيدا. وبدوت كأنني أتخبط في شراك غابة متوحشة، وأنه ما من اثر لذلك المتن، سوى عقارب خديعته تلدغ مخيلة الوهم، نافثة سمومها في خلايا لغتي. وهذا بعض ما رأيت.

برلين 2009/12/12

رأس المملوك جابر

تقول الحكاية:

بأنه في قديم الزمان كان في بغداد ثمة وزير سيئ الطالع عاش ردحا من الزمن محاصرا داخل أسوار قصره بعد أن نشب النزاع والشقاق بينه وبين الخليفة، وقد تعذّر عليه وقتذاك خرق رقابة الحراس والجواسيس، بغية تمرير رسالة يطلب فيها النجدة من أحد ملوك العجم. تضيف الحكاية بأن أحد مماليك الوزير ويدعى (جابر) كان شديد الولع والهيام بفتاة جميلة، اسمها (زمرّدة) هي خادمة زوج الوزير. ولأن المملوك جابر قد حدس على نحو ما قلق سيده الوزير الذي كان يخطّط بصمت لتسليم مفاتيح بغداد لملك العجم والإطاحة بسيده وولي نعمته خليفة بغداد، لكي يجلس هو على كرسي الخلافة. يومها وجد المملوك الفرصة سانحة لكي يقوم بمهمة حمل الرسالة الخائنة، وذلك بعد أن توصّل إلى فكرة شيطانية لا يخامرها شكّ، حيث اقترح أن يكون رأسه هو بمثابة ورقة خفية لكتابة عبارات الخيانة تلك؛ وذلك مقابل موافقة الوزير على زواجه من الخادمة (زمردة)، وفي الآن نفسه، كانت لدى المملوك أحلامه الصغيرة وأطماعه الجديرة بخيال الخدم الأذكياء. وهكذا، عجل الوزير باستدعاء الحلاق الذي تفنّن في جعل رأس المملوك جابر صفحة ناصعة

وسلسة تطاوع ريشة الخطّاط . لكن وفي اللحظة ذاتها التي كاد خلالها الخطاط أن ينتهي من تحبير آخر حرف من حروف الرسالة، تغيّرت نظرة الوزير إزاء مملوكه، وخمّن بينه وبين نفسه بأن هذا الكائن الحالم الذي يتفوّق ذكاؤه على ذكاء الخدم، قد يضمر طموحا لا تقف حدوده عند الخادمة زمردة؛ لذا بيت الوزير أمرا ما، وفي اللحظة ذاتها مرّر بخفة ماكرة ورقة مطوية إلى الخطاط الذي ارتبك للوهلة الأولى لهول ما تنطوي عليه العبارة من شرّ لا فكاك منه؛ ثم ما لبث أن سيطر الخطاط على ارتعاش أصابعه الخائفة، وخطّ رغما عنه الجملة القصيرة التي تنطوي على فداحة المجهول. بعدها عُزِل المملوك (جابر) في غرفة منفردة داخل دهاليز القصر المحاصر، يقوم على حراستها سجّان غليظ القلب، ريثما ينمو شعر رأسه، لينطلق بعدها إلي بلاد العجم. وفي ذات صباح حانت ساعة الشؤم لكي ينطلق المملوك لتأدية رحلته الغريبة التي ما من أحد يعلم وجهتها غير سيده الوزير. لكن حين انكشفت لملك العجم ملامح الكلمات الخفيّة، أدرك بأنه قد أضحى قيد أنملة من حلمه في الاستيلاء على بغداد، وامتلاك كنوزها الوافرة؛ لذا حرص دون إبطاء على تنفيذ وصية وزير بغداد التي أكدت على قطع الرأس الذي حمل عبارات الرسالة النادرة. وهكذا كانت خاتمة أحلام المملوك، التي بدأت بغزو بغداد ونهب كنوزها وثرواتها الهائلة. لكن ثمة هنا العديد من الإشارات التي تركتها هذه الحكاية مفتوحة

لشهية التأويل، وقد أخفاها الكاتب بدهاء شديد الحنكة، وكأن **سعدالله ونّوس**، حين سطّر: مسرحية (مغامرة رأس المملوك جابر) قد حدس على نحو ما بالمصير الفاجع الذي جعل من أحلام المماليك والخدم طرفا رئيسا في نسج مؤامرة كبيرة، لا أحد بعدُ يمكنه سبر نهاية ما، لفصلها الأخير.

مونولوج

في لحظة بالغة القساوة والأسى، قد يأكلك السام وتغدو مستسلمًا دون هوادة لضراوة النأي والعزلة، معتقدا لا محالة بأنك بهيمة منبوذة، فائضا عن حاجة الزمن الذي تتفاقم شراسة آلته يوما بعد يوم..حيث لاشيء البتة جديرًا بالطمأنينة. وفي غمرة هذا الإحساس الموغل في الوحشة والتهدم، تكتشف لهنيهة بأن ثمة في هذه المدينة من يتذكّرك، ويهبك حيزا ودودًا من وجدانه وتسامحه. هنا، وعلى الرغم من تلك الإشارة التي تضيء ركنًا مظلما في روحك الجهمة، وتوقظ في نفسك يقينا ما بالتفاؤل والزهو؛ إلاّ انك حتما سترتبك إزاء ما يمكن أن تقدمه بدورك إلى من يحفظ لك في أرشيف عواطفه قدرًا من الود.

لعلك ستتساءل عن وجهك الآخر الذي لا تراه، عن صورتك المخفية في قلوب الآخرين، عن عناوينك التي تظن بأن صروف الدهر قد محت رسم تضاريسها من خارطة الألفة، عن ضحكتك ونبرة الهدوء النظيف في صوتك الذي ذهبت الرياح بعذوبة إيقاعه الحالم، عن شغف مشيتك عندما كنت تقود الشوارع إلى مآربها البهية؛ وقد تتساءل أيضا، بينك وبين نفسك: هل يحق لك أن تعترف. ربما يعد هذا المنولوج ضربا من الحوار مع

الروح، لأن ثمة أشياء تبدو رغم سذاجتها الطافحة على السطح في غاية التعقيد. هنا تحديدا تشير عبارتك إلى حماقات دامية، ومفارقات من سلالة دون كيخوت، فيما تلمّح قصيدتك إلى ذاتك الممزقة ولحظاتك المركّبة على نحو بالغ القساوة والغموض. تتفاقم تراجيديا قصيدتك، لتشي بكائن لا تمر أوقاته هكذا؛ كأنّك خلقت لمشيئة الغبن والخيبات المتراكمة لكي تتواطأ مع الألم، مع لعبته التي دائما تعيد صياغة نفسها بهيئات وأشكال يتعذّر القبض على أوصافها. كذلك تَحتّم عليك أن تتصالح مع غربتك في أعنف تجلياتها قهرًا، فليس أشدّ وطأة من تلك العزلة التي يعانيها الكائن داخل وطنه، عزلة اللغة، المخيال، التأمل، التسكع عبر مرايا باهتة، وهي لحالة من الجنون المستعصي حين يتكرّس الحنين للمجهول؛ حيث ينبري كل شيء في ذمة الغيب. كل ما هو منتظر ومُتوخى ومحلوم به، يستوطن لحظات مؤجلة، تظل دائما مرتقبة. هذا التوق لمخلوقات من وهم .. يتمثل في كل ما هو أثير ومهيّج للشغف. لكنّه يبقى مجرد حلم معاق، ينتجه هوسٌ جامح، يكتب رسائل لحبيبات الغيب، ويجفِّفُ ورودا في كتب لم تُقرأ بعد، ويبعث بمكاتيب حارة إلى عناوين مجهولة.

لعلك ستعتذر في يوم ما حيال هذا الكلام الذي قد يصل أو لا يصل. وهذا البوح المرتبك والإفشاء الخجول، لكأنك في بعض ما تسميه نثرًا قد وزعت نتفا من تمزّقات لامعة، تبعثرت أشلاؤها هنا أو هناك في قصيدة أو حكاية أو مشهد.

لكنك تبدو غير مكترث، وأنت تقضي ثلاثة أرباع يومك في غرفتك. أحيانًا تمر أسابيع ولا تخرج إلى الشارع. لم يعد ثمة أصدقاء تنتظر أوبتهم، تُعدُّ لهم القهوة والحكايات الساخنة، وتشاطرهم رحلة الخيال، كما كنت تفعل، بعد أن اختفوا فجأة، غادروا أو تلاشوا أو تاهوا، أو لعلهم استسلموا لغوايات بعيدة. وأن ما تبقى من حبات في مسبحة العناوين التي كانت قبل قليل أثيرة، بدت الآن باردة وخاملة بعد أن فقدت تلك البراءة التي كنّت تُربِّي مفرداتها، وتزوّدها بما تحتاجه من دفء وحواس إضافية لكي تقتفي من خلالها حدس الألم / دليلك الذي بهديه تعرف أنّ تكمن فخاخ الفتنة، وسطوة المتع، في ما تقترفه من قصائد وأحلام ومحطات رحيل لا يكف.

يا ترى كيف يمكن أن تلتبس الحقيقة بالتيه، وما كنّت تضمره من مباهج أضحى محض غائط كريه. سقطت النجوم، وكشفت السجفُ عن سماء لا أين لها، وغدت أغاني فيروز، وموسيقى تيودوراكيس مجرد أصداء باهتة في متاهة العمر. هل كنّت محض ظل باهت لزمن عابر؛ وبذا قد ضاقت أوطانك وانحسرت حدودها في ذلك الحيز الصغير الذي تتيحه كلماتك البائسة. كم مضى من الهزائم والخسائر والخيبات لكي تتذكر إيقاع آخر ضحكة في رواق هذا العمر الذي تشظّت أيامُه ولم يعد بينك وبين ما كنت تكتنزه من محطات سفر؛ غير ما تتيحه الذاكرة من مصائد سهو . أين أنت، وكيف هي أحوال الطقس، وكم سنة أخرى يمكن أن تضاف إلى ذخائر النوم. يالها من غرائب وفصول شحيحة هذي المفازة التي غمرتك بغبارها. فلم تعد

تبصر ما ترتكبه الضراوة من ألم. كانت قصيدتك في يوم ما أكبر من حدود العبارة. والحالة هنا تقتضي بالضرورة إلحاح إيواء، ومجاز رحم وتلك الرغبة التي لا يردعها كابح في الأبوة: الأطفال، سحر لا يقاوم فمازلت لا تصدق بأنك تحوز على هذه النعم (زينة الحياة الدنيا). فلو لم يكن الأطفال معك كيف يمكنك مقارعة الهلاك الذي يضرب أوتاده في جهات الروح. صغارك هم الطاقة الحقيقية التي تشحن قدرتك على الوقوف؛ فكلما ترنّحت قليلا أو هزتك رياح الغدر تتوكأ على براءتهم. إنهم يسندونك الآن رغم كل شيء. فها أنت مرة أخرى تتربّى بهدوء على احتمال المزيد من التّعب؛ وها هي الأيام تواقة من جديد، ترسم وجوها حالمة، وتعزف كل مساء ألحانا من وحي الغائب، وتعيد قراءة سمرقند التي طردت عمر الخيام خارج بساتينها، وتقترحُ أمّك الصغيرةُ وعداً من الخفة يتكفّل بحمل ثقلك إلى مطارح أخرى أكثر أمنًا. فلا تلتفت وراءك، قد مضت الأيام تلك، ولم يعد ثمة أحد جديرا بالتساند.

كانت قصيدتك الأولى صنيعة حدث شخصي. حين اكتشفت طرابلس وفتحت أبوابها العتيقة بمفاتيح صُكَّت من خامات تأنيث. كان لنون النسوة الفضل في سنفرة نحاسها .. لم تكن وقتها سوى جندي بسيط فرّ من قساوة الثكنات، وصرامة قوانينها الجائرة، ليجد نفسه فجأة في ما يمكن أن يُعدّ نعيما، خارج حياة الأسر. لهذا كانت القصيدة هبة الله، منقذتك من التهدّم والضياع؛ حيث لا عائلة، لا بيت، ولا وطن غير ما تهيئه الثكنات من جحيم

الغبن. كانت بالنسبة لك منجم سلام وكنز طمأنينة. فماذا عساه أن يحلم ذلك المخلوق الوضيع الذي لا يُرى. عالم من الغوامض والعيّ والارتباك والخجل التاريخي. كانت بمشيئة حدث شخصي مهيأة لأن تكون شريكة سر، وأنت لم تكن محض شاعر وكفى، بقدر ما كنت طفلا إضافيا يقع على عاتقها عبء مداواة جراحه الكثيرة التي تمزّقت تلافيف ذاكرتها النازفة. مرّ وقت لم تكن فيه راغبا بانشغالات المنزل، انتقمت على نحو ما من ضراوة الأيام؛ فتسكعت وسكرت وسافرت بفضل القصيدة إلى عواصم وبلدات لم تكن متاحة قبل قليل؛ كأنك تصفي حسابا قاسيا مع الحياة، وتثأر من الضنك وقلة الحيلة. منحت نفسك براحا من التمرد والعربدة والمغامرة والمجون، ربما ساعدك حدسك على معرفة تلك الإشارات التي تومئ لك، لكي تقتفي ما تخبئه أقواس الحبر بين أظلافها من روائح، وعوالق ريح حمّالة لقاح ونفايات مدن. فتربّصت بعصامية متوحشة للانقضاض على كل ما هو جريرة سفر وخطيئة تأمل. قرأت متون التوحيدي واقترفت بعض ما جناه الحلاج على رهطه. وكنت وحيدا. أجل الوحيد بين أترابك الذي يجمع بين الكتابة والوجود بعفوية جارحة لا دليل لها سوى الحدس. كانت القصيدة بقدر بساطتها؛ مجاز واحة صغيرة كلما ضاقت بك الحياة اتسع رحمها .

خريف 2002

حلقة مفاتيح

ما يجمعنا أيّتها الشقيقة، أكبر من أن يلخّص في بضع كلمات. فمنذ ربع قرن عندما لم يبق على رصيف الوطن سوى الشعراء وحدهم، ينثرون أحلامهم في حقول الريح. التقينا بمشيئة الخيال البهيّ والصدف الرحيمة. يومها؛ كنا نقترف الحياة بشفاه المستقبل؛ فهل يحتاج نمو القصائد إلى مبرر لحظة أن تترعرع في رحمها المدن والحدائق والموسيقى وباقات الفرح، هل يحتاج الشاعر إلى براهين سوى أن يكون كما هو وكفى، خجولا وعفويا وتائقا ووفيا بهدوء. هل ثمة داع لاختلاق ضجة ما، لكي نعبر عن إخلاصنا. فهل بالضرورة أن أعتذر عن كسل وراثي، تغريني مفاتن تأمله، أو خطفة خمول جميل، يظلّ دائما أكبر من أن يوصف حين أتواطأ مع كائناته مأخوذا بتلك النشوة التي تمحو ملامح الأرقام، وتنسيني تكتكات الوقت وهو يركض حثيثا – لست أدري إلى أين – . اعترف دائما، واكرر الاعتراف – دونما غضاضة – في حضرة قصائدي وبناتي وحبيباتي وجلاّسي الخلّص، بأنك قبل ربع قرن قد سلمتني حلقة مفاتيح لأبواب طرابلس، التي وطأتها ذات صباح شتوي مطير، بهيئة جندي سعيد الحظ، منتعلا حذائي الثقيل المعفر بطمي الفاقة، مرتبكا في بدلة الشغل الخضراء. ضاجا بالخجل وعطن الثكنات وزعتر

الجبل الأخضر، وغبار الصحراء البعيدة ودخان الحروب. لم أفكر لحظتها بأن ذلك اليوم سيكون الإشارة التي ستفتح لي نوافذ لم أحلم بها، وعتبات مباركة للتعرف على الأسماء الأولى، والرؤية عن كثب لشرفات السحر وهي تهطل بالنور والمواعيد الحميمة، وأن أتذوّق ثمرة اللوتس تلك التي تجبّ ما قبلها من مفاوز ومحطات. منذ تلك الإشارة عشقت طرابلس، هذه الفتية الأمّارة بالخيال. فهل يلزمنا الخلان الأوفياء، أن نعتذر عن أخطاء لم نقترفها؟ ثم ما ضرّ أن عدت قليلا إلى الصبا، واستمتعت للحظات بطعم الزهو، بعد تلك الحشود الهائلة من المكابدات التي تصرّمت نصف أسرارها، ما ضرّ أن سهوت، أو تأجل الوعد قليلا .. ؟ سيّما وأن عروس البحر قد وهبتني قبل هنيهة، وبإصرار سخيّ لا يقاوم: الرنيم الذي يختزل المسافة بين الحلم وبيني. الرنيم ذاته الذي كان طرفا مسؤولا عن إيقاظ الأحلام من سباتها الغشيم. فهل ثمة ما يقصم الوعد، حين أعود إلى ديار الصوت المبارك، محيارا، لا مهيافا، صادقا لا أفّاكا، أترصّد شغاف الطريق إلى ذاكرة الشعر، مقتفيا العناوين نفسها، التي قد تطفئ أبواب مودتها، وربّما تبتسم هواتفها أو تلوي بوزها، أو يتعذر حدس مزاجها الحراري (كأن يتقمص دفئها دواميس من زمهرير)؛ فأنصرف في آخر المطاف خائبا، وغافلا كالعادة عن ما يؤجل المواعيد.

في الثكنة

ولأنك تعيش وحيدًا كما ينبغي لجندي بائس في ثكنة مهجورة، أيام العطل الوطنية وإجازات الأعياد؛ ستدرك وبمحض الصدفة ذاتها التي شردتك؛ ستدرك أخيرًا أن الحياة ليست محض غائط. لأن الله خلق الكلمات والكتب لمعرفة الجهل، وأيضا للفقراء أمثالك. فعبر الكتابة وحدها، بقدر ما تتحقق العزلة، يمكن لسوءة كسوءتك أن تجد لها متنفسا، علّها تتخلص من الريح الفاسدة التي اختزنها جوفها طيلة دهر من تكدس الفجائع والخسائر والأوهام. وأنه في مقدورك أخيرًا، ومن خلال بضعة كتب أن تنسى الجندي وتتخلص من كل اعطابه وترهاته. وتستأصل الجزء الوسخ من نفسك، إذا أردت حقا أن تؤسس عائلة رحيمة.

ليس ذلك وحسب، بل سيُتاح لك أن تُسافر إلى أقصى حدّ، وأن تحلّق إذا شئت، تمامًا كحلم مبهج؛ يجمع بين عاشقين في رواية ستكتبها أنتَ، بدءا من تلك اللحظة التي ستهجر خلالها حيوانا طائشًا وُلد في البريّة.

لغة

ها أنت في برلين، تتطلع بلهفة إلى استعادة حواسك، وتنشيط خيالك، وصقل معرفتك بعالم مختلف. تسعى في كل حركة أن توقظ نباهتك بلغة متفائلة، تهبها نفسا مطمئنا ،كأن تحاول إيهام نفسك بأن معركتك مع جسدك هي فقط مسألة وقت. ها أنت في برلين تفتتح علاقتك بعناوينها وذاكرتها من داخل غرفة صغيرة، وملاءات بيضاء وأنابيب وحقن وإصغاء شارد لما تمليه مشيئات الألم من تواطآت مع العزلة، لتختزل جغرافيتك في سرير معدني تحيطه ستة جدران بالغة الصمت يكسوها طلاء مهذب، ستة جدران استعارت ألوانها من سماء نظيفة، الجدار الأول بمثابة سقف يتدلى من سرته مصباح مشنوق، الجدار الثاني بهيئة أرض تحمل سريرًا ومنضدة صغيرة ومقعدين خاليين على الدوام، الجدار الثالث يقع جنوبا خلف ترهات وسادتك. الجدار الرابع يخفي الشمال مختالا بلوحة مائية مستنسخة تصوّر امرأة ترتدي أجنحة وقبعة من ريش، الجدار الخامس وهو الشرقي الذي يتميز بوجود باب رصين يُفتح لدخول الأطباء والممرضات وموزعي الطعام وحملة المكانس. أما الجدار الأخير، وهو الغربي الأكثر ألفة، لأنه يترك حيزًا من وسطه لفراغ النافذة، وهي الوحيدة هنا التي تتيح لك إقامة علاقة بصرية مع الخارج، نافذة شاسعة بالطابق الخامس عشر تسمح برؤية سماء الله،

وأيضا رؤية محطة قطارات عملاقة وكنيسة عتيقة ونهرًا صغيرًا وجسرًا وطرقات إسفلتية وغابات شاسعة تنتهي بأفق ضبابي، وشمس تتوارى كل مساء خلف الجبال البعيدة تاركة خلفها هياكل شاحبة ترسم لوحة من ظلام طازج. تتأمل مسار القطارات القادمة والمغادرة، وغالبا ما تستغرقك رحلة السحب وما توحي به تشكلاتها من افتراض ملامح عشوائية لحيوانات عملاقة. لا تعرف شيئا عن برلين، سوى نتف ضنينة من سيرتها في الحرب الثانية، وجدارها الذي تهدم ليتعانق الشطران من جديد. تحزنك كثيرًا مسألة جهلك باللغة الألمانية، حيث يتعذر في الحد الأدنى التعبير عن الألم والتحدث مع الآخرين، فتظل مشاعرك محض تكومات مهملة ومحبوسة، تتكدّس بين كل لحظة عجز وأخرى، لتجعلك رهين عزلة مريرة وثقيلة لا تنتهي. أحيانا تنتظر المترجم لكي تعبر له عن شكاتك ومتطلباتك، لكن السيد المترجم غالبا ما يأتي في أوقات غير الأوقات التي تحتاجه فيها، فدائما ثمة مفارقة في المواعيد، فحين يكون الطبيب حاضرًا يغيب المترجم وهكذا دواليك. أن تكون وسط أمكنة تكتظ بالأوجاع والحقن والممرضات ورائحة الأدوية، من دون أن تستطيع المشاركة في تبادل الحديث مع العالم الذي يحيط بك؛ ستبدو عزلتك أكثر كثافة وحزنًا حين تركن لخيال عليل يتربّى داخل ستة جدران تتضافر لصناعة غرفة صغيرة. لكن - وفي ذات الغرفة - يمكن اعتبار هذه الحكاية أقل تعقيدا بفضل تلك الحواس السخية التي تهبها لغة النافذة.

نثر الوجه

لكتابة وجهك كما أراه؛ «تلزمني غابات من الأسماء الحارة؛» لكي أذوّب كل ما يعترضني من خجل وامضي حرًا؛ إلا من دمك وهو ينفر عنيفا؛ ليلون الطرقات بشذاه. سأقترح كتابة أكثر تماسكا وتورطا في الغواية، حيث تقتضي الهشاشة الحضور اللائق، بمهابة ملكة، هذا إذا اتفقنا على إقحام الوضاعة في ثنايا اللغات التي نقترح استدعاء مفرداتها؛ لرسم الوجه ذاته، بألوان أكثر شراسةً وتوحشًا؛ إذ يظل رسم الوجه ذاته بثلاث طرق أو أكثر مسألة في غاية التطلّب؛ طالما أن صوتي البارق هو من يصكّ ذلك المديح السادر منذ زمن في مكان ما، من التاريخ الأحمق لتلك السفينة التي تمخر عباب البحار والمحيطات دونما هدف سوى إلقاء الحمقى في الغريق الخافي، حيث يبدو العالم أكثر وحشة من دون وجه. أعني ذلك الوجه المجهول وهو يشي بجمال صارخ، علّه يجتاح ظلمة أشدّ قتامه وطعنًا ونزيفًا؛ ظلمة تنطوي على لغات شتى حتى يمكن الاقتراب من ملامحه الغامضة، وتوصيف هيئته بحياد مبارك، لعل من يراه سيدرك مدى بشاعة أن يظل هذا العالم متروكًا لسلطة الأوغاد والبهائم. ولأنني لم افلح بعد في القبض على ذلك الشيء تبعًا لما هو متعذر ومستحيل وخفيّ ومجهول؛ لهذا سأظل اركض إلى ما لا نهاية

بغض النظر عن وعورة القواميس وضراوة المعاجم. كأنني الآن اكرر نفسي؛ حين استعيد العبارات ذاتها التي انكتبت من قبل، والتصقت بأجساد وأسماء ووجوه أخرى.

(2)

أتخيل أشياء كان ينبغي أن تُوجد، لكي تُلمس وترى وتُشم؛ أشياء قريبة حواس تتململ وتقلق وتنتفض وتعربد وتفرح وترتكب المزيد من الهوس والجنون. ربما سأكتب قصيدة أو تعويذة أتقرّب بها من تلك الوجوه التي نحاول أن نطلق عليها ما يليق بها من صور وأسماء؛ لكن ليس بالضرورة دائما افتراض أو ادعاء معرفة ما بمخلوقاتنا، وأن ما نصطفيه أو نحبه قد نتوهم معرفته ليظل متوحدًا؛ بينما نحن لا نعرف أنفسنا حق المعرفة؛ ربما لأننا أكثر تعددًا و تنوعًا، وأن ما نحتاجه من أسماء لا يُحيط بما تقترفه أفكارنا من سفر ونوم ولعب.

(3)

ثمة من يتواجد بشروط الضغينة، أي لا بد من افتراض عدو ما لكي يصل إلى التحقق. هذا النمط من الكائنات هو الذي يحافظ على استمرارية نزعة الشر.

تنظيم الألم

ليس الوقت وحده ما أحتاجه لكي أكتب؛ بل الخلوة المتسامحة؛ فها قد تخطيت الستين من عمري وما من منجز يمكنه أن يرضي بعضًا من طموح لطالما راودني خلال سنيّ الخائبة، والتي انسلخت هدرًا دونما أثر خليق بالإشادة والاحتفاء. استيقظت اليوم صبيحة الجمعة السابع عشر من فبراير وأنا أشد تقريعا وتعنيفا لنفسي، ولو لم تكن إشارة خبل لصفعت وجهي حتى يدمى. فلشد ما أنا مخذول ومحبط إلى حد كرهت فيه النظر إلى سحنتي الجافة وقد وسمها شيبٌ وأسى غائر وتجاعيد. وكنت واهنًا ومعذبا وأنا أغادر الحمّام ومرآته، أتذكر نتفا من حياتي الماضية، والتي أبداً لمْ تكن في ما مضى هنيئة أو آمنة. ولكم أستغرب الآن كيف صمدت إلى أن عايشت هذه الأيام العصيبة التي اجتاحت البلاد بقضها وقضيضها.

ولكن هل أسمي بقائي صمودًا؟ الصمود هو أن تنتصر أخيراً وتتحقق. أمّا البقاء كالميت الحيّ لا يشكل وزنا أو قيمة. وعلى الرغم من ذلك فأنني أحيانا أشعر كما لو أن المرض وحده من يبقيني على قيد الحياة. فطيلة السنوات العشر التي مضت انحصرت مكابدتي في معالجة الألم، حتى تبرمجت أيامي على نحو ما ضمن تأثير هذا الإيقاع. لأن المرض المزمن ما يلبث بعد

المعايشة الطويلة أن يتحوّل إلى علاقة يومية لها عاداتها ولغتها، كان عليّ وحدي التفكير في إعادة تدويرها لتكون سببًا أساسيًا للتحقق عبره؛ كما لو أنها مرادف آخر للمعرفة. ولكي أستمر في الكتابة عليّ أولا: تفهّم المرض وإنصافه، وبعدها يمكنني تدبير مسألتي الخلوة المتسامحة وتنظيم دورات الألم على نحو أكثر تلطّفاً وجدوى.

باب الأعمى

ليس من الإنصاف في شيء لحظة أن تكون مجهولة ملامح وأسماء وجهات وخرائط وعناوين من تصطفيه دون غيره لتقاسمه أوقاتك وتبثه مشاعرك، وتشاطره ذاكرتك ودروبك وحكاياتك وخبزك وبهجتك ودموعك وملحك وكل أوجاعك. عندما تتكلم بلغة ناصعة ونقية مع شخص ينظر إليك من شق الباب أو عبر ثقب ما، شخص يراك بيّناً وجلياً، بينما لا تبصر منه سوى ما تقترحه الكلمات من إيحاءات و ألوان وأصداء يظلُّ يقينها نهباً لمعاول الشكّ. ولعله رغم ما تنطوي عليه مفارقات هذه الصورة السوداء من إحساس مجحف بالقساوة والظلم لحظة أن تكون معلوما ومعلنا ومتجليا إلى أقصى درجات الشفافية والوضوح لكائن متستر ومجهول يستمرئ معك لعبة الخفاء والإضمار والتكتم، أن تنفتح على المغلق وتتكشف إزاء المحجوب والمندس، عباراتك تتدفق عارية، تاركة مضانها ودلالاتها ومصبّاتها تنساب نظيفة ومعلنة وبريئة وواضحة في بؤرة الضوء؛ بينما يتوارى شريكك خلف سجف العتمة، وهو يتجاذب معك أطراف الكلام، حيث يتاح له رصد إيماءة عينيك، وارتعاشه شهقتك وامتقاع ذاكرتك وهفهفة خيالك، واستعراض تاريخك وجغرافيتك ومعتقداتك وهوسك وجنونك، وحتى ألعابك البريئة وأثاث غرفة نومك، وإكسسوارات حمامك وكل شيء يخص قامتك المفضوحة، من أخمص قدميك إلى قبعة سمائك، ومن مهدك إلى لحدك ،بينما

يصعب عليك اختراق ظلال صورته المشفوعة بطغيان قتامتها، لتجد نفسك رهنًا بعثرات النظر، متلبكا ومرتبكًا و عاجزًا عن اقتفاء اثر الصوت، وحدس صداه المظلم الذي يدور تبعا لنزوات التورية، ومجازات التكتم، وتقلبات طقسها المريب، ودورة فصولها الغريبة، محاولا الإصغاء لنبرة الكلمات مستنفرًا نباهة أذنيك لكي تسعفك على رسم ملامح محدثك، مكرسًا خيالك لحشد من السمات التي تتزاحم دونما جدوى، مستشعرًا في داخلك قساوة لحظتك الظالمة حين تتعطل بقية حواسك ويختزل كيانك بهيئة أذن صاغية، فيما ينعم من يبادلك الكلام بإطلاق حواسه كلها، حيث يبصرك ويسمعك ويتحسس تضاريسك ويشمّ رائحتك.

ستشعر في دخيلة نفسك بأن هكذا حوار بين التجلي والخفاء لن يكون عادلا أو متكافئا عندما تظل أجهزة حواسك على هذا النحو من الغبن، بينما يحوز الطرف المقابل على مفاتيحك ومحفظة أسرارك وأجندة عواطفك وأرقام هواتفك؛ لكن عندما يكون مجهولك هو يقينك الوحيد والممكن الذي وهبته لك حظوظ الصدفة الأم، واللحظة المستحيلة التي لا تتكرر إشاراتها دائمًا بنفس الإعجاز، عندها ستحمد العناية راجيًا أن يظل خفيك خفيًا ومجهولك مجهولا، لأن فاجعتك قد تنقلب إلى واقع أبلغ عنفا ومرارة لحظة أن تتكشف لك حقيقة محدثك، فحينها قد تفقده إلى الأبد ولن تجد بديلا تصطفيه لمشاطرتك الخبز والكذب والشجار والحليب والسفر والدموع والأحلام.

على نهج النّفري

« .. وقال لي القرب الذي تعرفه
مسافة، والبعد الذي تعرفه مسافة، وأنا
القريب البعيد بلا مسافة . "

- النفّري -

(1)

أن تكون واضحا، تلك مسافة أكثر شفافية وسطوعا وتبسطا .

الوضوح صفة لا تحتمل عندما يدخل العالم إلى مناطق مظلمة، لحظة أن يفكر الطرف المقابل بحسابات أكثر مواربة وخبثا لا يسعك إلا أن تدفع الثمن غاليا . ففي زمن يتشبث بأسراره ماذا في مقدورك أن تفعل ليكون غموضك أكثر وضوحا .

(2)

تبدأ الحياة بمسافة ما، بإشارة، بكلمة .. بضوء .. بشهقة .. بحركة .. بصيحة .. بابتسامة .. بعض هذه المسافات الحية تشاطر الموت .

(3)

الحوار أيضا تلزمه مسافة ما لكي يستيقظ من سباته.. يمكن أن يكون مزاحا أو لعبا .. لكن الكلمات ما تلبث أن تشي بخبيئها .

(4)

أن تجد مسافتك فائضة عن حاجة المحيط ..

فأنت ولأمر ما .. قد تكون أكثر بعدا من أن ترى .. وأبلغ دقة من أن ترصدك الحواس .. وأقوى أثرا من أن تختزلك ثرثرة العابرين .

لأن جوهر الأشياء يكمن في خبيئها الذي لا يمس .. لهذا ينبغي أن تكون سعيدا كلما وجدت بعدك عن العالم يزداد قربا ..

وقربك من العالم لا تحده لغة أويحيطه زمن .

(5)

الحب مسافة /

لأن الذي لا يكره لا يعرف كيف يحب /

المرح أيضا مسافة تستمد بهجتها من طاقة الأسى ..

لهذا كان القبح ضرورة لكي يكون الجمال جمالا ..

ولهذا كان الموت نصف الحقيقة .

إشارة

فيما قرأت عرفت أن البشرية قطعت أشواطا طويلة من المعاناة الجسيمة ريثما أتيح لها الاقتراب من آدميتها وملامسة وجدانها. قبل أن يكتشف ملكة الكلام كابد الإنسان الأول طويلاً مستعيناً بغريزته وحدسه ليتوصل أولاً إلى لغة الإشارة والإيماء، مستعملاً بالفطرة وحدها أصابع اليدين وحركة الشفاه والجسد في عملية شاقة. تضافرت فيها جميع الحواس لتحديد علامة ما، تكفي بالكاد للتدليل على إحساسه بالجوع والعطش والخوف من المخاطر التي تتربص به، وهكذا كان لزاماً عليه في أول الأمر اللجوء إلى المحاكاة وتقليد حركات وأصوات المحيط من ظواهر الطبيعة وكائناتها.. غير أنه ما لبث فيما بعد أن طوّع الرقص كثيمة ضرورية لإثراء معجم علاماته ليكون أكثر اتساعاً لإيواء المربك من أسئلته المتعذرة النطق والتي كانت تسبب له مزيداً من القلق والتوتر.. لكنه في مراحل لاحقة.. بدأ أقل انفعالاً وتوترا حين اكتشف مقدرته على الرسم .. حيث مكنته ملكته الجديدة من تشكيل صورته وصور حيواناته ومعاركه وهجراته، هذا ما تشير إليه بوضوح رسوم الكهوف بمثابة قفزة ثقافية جعلته يتفوق تدريجياً على وحشيته الكامنة ورؤيته من ثم، بإرادة أكثر صلابة لترسيخ كيانه والانتصار لصالح آدميته. ثم ما لبثت

تلك الرسوم أن اختزلت إلى إشارات لمّاحة.. كانت هي المفردات الأولى التي دشنت مدوّنة الكتابة كأخطر اختراع للعقل البشري، تلك اللغة التي استمدت جوهرها من خلاصات الفنون الجميلة كالتمثيل والرقص والرسم والموسيقى.. وتوجت نفسها بسحر الكلمة وإنجازها مجسداً في علوّ الشعر وبلاغته، قد حققت بذلك أعظم انتصاراتها الحضارية حين دحرت عصور الكساح والعي والانحباس.

لاوتسو الحكيم العجوز

منذ أكثر من ألفين وخمسمائة عام، حدث في قرية - كيوه - بإقليم تشو، احد أقاليم إمبراطورية الصين القديمة، أن رزق رجل فقير من زوجته الفقيرة بولد سمّياه (لي بيه يانج). وتبعا لكتب التاريخ لم يُعرف عن حياته سوى القليل، أهمها أنه في شبابه المبكّر قد عمل أمينا للمحفوظات في المكتبة الإمبراطورية. هذا العمل كان منسجما مع شغفه في المطالعة والتعلّم والبحث والتحصيل، لأنه عندما بدأ يجهر بآرائه في الفلسفة والدين والتاريخ والشعر والموسيقى، قد حظي بإعجاب الكثيرين فأطلقوا عليه الاسم الذي سيعرف به، وهو: لاو تسو، ومعناها في الصينية - الفيلسوف العجوز - لكن ما لبث في الأثناء أن تعرّض لشيء من السفه والذل، فشعر بأنه من المهين أن يعيش في ظل السفهاء، وقد ضاق ذرعا بمحيطه، وصمّم على مغادرة المكتبة الإمبراطورية. لكن الحكمة تقتضي إذا أردت أن تهجر منزل العائلة دونما رجعة، بأنه يتحتّم عليك أن تترك خبرتك لأهل البيت الذي ترعرعت في كنفه وتربيت على حكمته واحتميت بسقفه. هذا ما حدث للحكيم (لاو - تسو) عندما قرر فجأة، وهو في التسعين من عمره، مغادرة الإقليم الذي يعيش فيه، مقترحا على نفسه العزلة ليقضي ما تبقى من حياته في البراري

البعيدة، بمنأى عن الناس. لكنه عندما بلغ حدود الإقليم، قد تعرّف عليه حارس الحدود، ولم يسمح له بالمرور. الأمر الذي أثار استغراب الحكيم العجوز متسائلا عن أسباب المنع، فأجابه الحارس بهدوء: أيها المعلم أنت فيلسوف عظيم ،شهرتك بلغت الجهات البعيدة، ومعرفتك لا تضاهى، فكيف سأسمح لك بعبور حدود إقليمنا وأنت لم تسجل بعد تعاليمك في كتاب يحفظها كإرث يضاف لخزائن معرفتنا. وأنّي أخشى إذا بارحتنا الآن، فلن تكون لدينا مدونة تضمّ خلاصة حكمتك. وحين تأكد للحكيم بأنه لن يبرح حدود الإقليم ما لم يسجل تعاليمه، دوّن في كتاب صغير من خمسة وعشرين صفحة، خلاصة الحكمة التي انطوت عليها خبرته ومعرفته وتجاربه خلال تسعين سنة قضى معظمها بين الكتب، وما أن سلّم هذا المتن الصغير لحارس الحدود، حتى سمح له بالعبور، ليهيم في البراري البعيدة. ومنذ اللحظة تلك لا يعلم أحد شيئا من أمر مؤسس عقيد التاوية الحكيم العجوز(لاوتسو). لكن ذلك الكتاب الصغير الذي تضمن أهم التعاليم الخاصة، بما يعرف بالعقيدة التاوية، ظل فيما بعد هو الدليل الوحيد على وجوده، سيّما وأن عقيدته قد وجدت العديد من الأنصار والمريدين، وعدّت من ثم كواحدة من أشهر المعتقدات في الديانات الصينية التي لها أتباعها حتى يومنا هذا.

علي صدقي عبد القادر

حارس الألفة

الاسمُ الحركيُّ للوردةِ، السياليِّ الأخيرُ، شاعرُ الشبابِ، جاك بريفير العرب، شاعرُ الحبِّ. هذا هو حارسُ الألفةِ، المحامي، (على صدقي عبد القادر)، بأسماء وصفات وعلامات تُشير إلى كائنٍ واحد، هو رحّالةُ مخيّلة، وجوّابُ سرّ، ومكتشفُ كنوزٍ وقاراتٍ وأوطانٍ وعواصم، بعناوين متعددة وأوصافٍ ستظلُّ طويلا حيّةً ونشيطةً ،وموقظة أحيانا لقصيدةٍ محيّرةٍ وقلقة، ساذجةٍ وماكرةٍ أحيانا أخرى.

ربما تبدّت قصيدته قادحة وذكية، وفي نفس الوقت قد تُعدّ باردة وحميمة، وأيضا عفوية وغامضة وبسيطة، ومتهمة وبريئة، لكنها تظل لأمر فيها قوية وهشّة في آن، ولأنها كل هذه الأخلاط المتنافرة، تجتمع في تناغم أو نشاز، بحيث لا نثق كثيرًا في قدرة إشكالها المترجرجة على تهشيم الأنساق، وكسر المعايير، وتحطيم قوانين الجمال.. ومن ثم سنتردّد في الرهان على مُكَنَةِ تمردها على كل ما هو ماثل وسائد- كما تشي أشكالها؛ وهي تخلط الجهات والأزمنة والمعاجم والكواكب والغابات والبساتين.

هي فقط قصيدته هو وحده: على صدقي عبد القادر، قصيدة لأمرٍ فيها مكتفية بنفسها، لها مذاق الذاكرة بطعم المستقبل، كما

لها عيون بنكهة الموسيقى، وآذان معجونة بأصداء قوس قزح، وأنفاس أمكنة تغادر، وحنوّ أمهات ينتظرن الغائب، ولهفة حبيبات الوعد، كأنه لا صلاة لهكذا قصيدة سوى الحلم. قصيدة معزولة ومتصالحة مع شتاتها وتيهها وانغمارها، ومن دون أية صرامة نجدها تُصك بكلمات عابرةٍ وبسيطةٍ ومنتهكة.. لتومئ علانية بأنها خرجت من لدن شاعر كبير، هو دائما مثار جدلٍ وغرابة، مثار إعجاب واستياء. كان شاعراً مختلفاً ومغايراً.. لأن الدهشة قد كرسّت جنودها لتأثيث عالمه، وكان متطلبا بالقدر الذي يحرّض على التأمل لا الفهم / على النظر لا الإصغاء. عاش طيلة رحلته الشعرية شغوفا ومتفائلا بالحياة، لأنه منذ البدء قد اقترح الفرح بمباهج وحواس شتى، فانحازت إليه الوردةُ وفاطمةُ ومعاجمُ الحبّ.

وعلى الرغم من أن شاعرنا لم يترك إرثا باذخا بكنوز المعنى، إلا أنه قد ورّث لقاموس الوجدان الليبي كل شيء حين سطّر بحبر الروح، قصيدته الخالدة: بلد الطيوب.. لهذا يتعذّر تجاهله أو نسيانه، كما يتعذّر معرفة قصيدة النثر في مشهدنا الثقافي المحلّي، وتوصيف مسار تجربة الشعر الليبي من دون أن يُشار إليه – غالباً كشكلٍ محض – لا يحفل بالتنظير، أو بأية شروط أو براهين، غير شروط المخيلة أو براهين الشغف بالبهاء. هذا هو (علي صدقي عبد القادر) كما أتذكّره الآن، بهيئة عاشق توطّن في البرزخ، إلى حدّ أن القصيدة قد وهبت نفسها لعبث الطفولة وفوضى الجمال المبارك.

ظل شاعرنا طيلة تجواله مأخوذا بالمستقبل على الرغم من توطنه المؤبّد في مهرجان الروائح العتيقة. شاعر ندرة، مثلما يصعب القبض على قصيدته، يصعب أيضا التنصّل من فتنته. لأن الشعر يسكن هذه الكلمة أو تلك بهيئة وردة أو سمكة أو نجمة أو رباط عنق، فثمة دائما خلطة عجيبة من الغوايات المشاغبة، غوايات مرحة تجذب الحواس النائمة، وتَفتنُ بإصرار متعمّد هوس المخيلة، لكي نهتف على طريقته، " يحيا الحب ".

آدم حاتم

و«الشاردة في ملكوت الجمر»

في خريف 1983 نشرت مجلة (مواقف) اللبنانية، قصيدة نثرية حملت عنوان: « **الشاردة في ملكوت الجمر** » بإمضاء شاعر مغمور يدعى (آدم حاتم) لم أقرأ له قبل، أو أسمع عنه أيما شيء.. أنا الذي كنت وقتها أكثر شراهة لاقتناء المدوّنات، واقتفاء أثر المغامرة، وتقصي سير شعراء الشتات، غير أن « **الشاردة في ملكوت الجمر**» كانت أكثر من قصيدة يتيمة، وهي تعلن دون مواربة عن همّ عراقي يتسع لصهر الخراب بحساسية شعرية مغايرة، ناهيك عن حمولة حارة من أساطير بابل وأشور، وصروف من أزمنة الحروب والخيانات.. حتى بدت كأنّها تنزف، مما جعل تكرار قراءتها حالة مشتهاة.

هكذا انطبعت في مخيلتي صور الشاردة، مقرونة باسم صاحبها الذي ظلّ غامضا ومجهولا حتى خريف سنة 1988 عندما سافرت إلى دمشق بفضل بضع كلمات تكفلت موهبة الموسيقار(علي ماهر) بتنغيمها وتوزيعها موسيقيا لتتخلل نسيج مسرحية باب الفتوح التي شاركت بها فرقة المسرح الوطني ضمن فعاليات مهرجان دمشق الحادي عشر للفنون المسرحية. تلك المناسبة أتاحت لي اللقاء بالعديد من الفنانين والكتاب والشعراء. هناك: تعرفت على تفاصيل أخرى في شخصية (**الماغوط**) ولامست عن كثب لعبة البياض لدى (**بول شاوول**)، ناهيك عن صخب الشعراء الشبان:

أبوروزا وولف المشغول بنثر أوجاعه المجعلكة خارج قميصه الأزرق، **يوسف بزي** وهو ينكمش خجولا إزاء نشوة رفيقه **يحي جابر**، بجائزة يوسف الخال، **لقمان ديركي**، الذي يتلو بشفاه الصوفي أشعار **سليم بركات**. وسط هذا الحشد تفوه أحدهم بالاسم المجهول الذي أيقظ ذاكرة الشاردة. حينها عرفت أن **آدم حاتم**، هو شاعر عراقيّ، يقيم بدمشق، وأنه كئيب وعاطل، يكابد ضراوة الخبز بكبرياء جريحة. لذا حرصت قبل مغادرتي الشام،على رؤيته، فضمتنا ذات مساء دمشقي بارد طاولة حميمة بمطعم سومر.

كان الشاعر يأنف ضجة المثقفين وأكاذيب الشعراء. قال: أن كل همّه وتفكيره ينحصر في تدبير تذكرة سفر إلى الهند، وتوفير مبلغ مائة دولار حتى يشتري بها فيلا هنديا، يتّسع ظهره لبناء كوخ صغير، ليجوب على متنه غابات العالم.

في أول الأمر اعتقدت بأن صاحبي يتندر بمزحة طريفة، أو هو يفتعل صرعة شاذة من تلك الصرعات التي تليق بنزق الشعراء، لكن صرامة كلماته لم تتح لي أي مجال للريبة في أنني إزاء كائن من سلالة **رامبو** .

بعد ذلك بعشر سنوات جلست وحدي على طاولة وحيدة، في ذات الركن بمطعم سومر، لأن الشاعر العراقي **آدم حاتم**، كان قد غادر الحياة بهدوء، قبل أن يتمكن من تحقيق حكاية التيه تلك. مات **آدم حاتم**، تاركا خلفه الشاردة في ملكوت الجمر، وقد مزّقتها الحروب، وتآمر ضدها ملوك الطوائف.

محمد الفقيه صالح

الشاعرُ النبيل

في حياة القصيدة الليبية ثمة تجارب فذة، وقامات سامقة تقتضي الحقيقة إنصافها، والاعتراف بدورها المؤثر في نسيجنا الوجداني؛لأنه يتعذّر عليك أن تدّعي توصيف حراك الشعر المعاصر في ليبيا من دون أن تتوقف كثيرا إزاء المدونة الشعرية للشاعر: محمد الفقيه صالح،الذي برز كشاعر يُربِّي مخيلَة تائقَة منذ النصف الثاني من عشرية السبعينيات، عبر الملاحق الثقافية المعروفة آنذاك؛ وبصورة خاصة صحيفة الأسبوع الثقافي التي استطاعت خلال فترة زمنية قصيرة، أن تفرض حضورها كمنبر إعلاميّ شديد التميز، إذ كان لها الفضل في تقديم العديد من الشعراء الشباب؛ من أبرزهم طموحا وعمقا ورصانة وتطلعا الشاعر الفذ: محمد الفقيه صالح.

فقصيدة الفقيه، وعبر مسيرة شعرية سلخت قرابة ثلاثين سنة، تستدرجك دائمًا إلى مناطقَ بالغة الجمال، وتضعك من ثم إزاء تجربة لا تملك إلا أن تستسلم لأسرها، وتحترم مسيرتها الحافلة بالمكابدة والحلم والعطاء.

ذلك لأنه شاعر كبير ومؤثّر في حركة المشهد الشعري الليبي، وأينما يذهب، يُحظى باحترام ومهابة،فضلا عن حضوره الأكثر تميزًا في المحافل الشعرية الخارجية التي تقام عربيًا وعالميًا،

لاسيما وأن مكانته الشعرية السامقة لا يختلف عليها اثنان؛ فله شغفٌ خاص بالحياة الثقافية،التي يُسهم في تأثيثها إبداعيًا ونظريًا ،وأيضًا له محدّدات ومفاهيم جمالية في التعامل مع الكلمات؛ إذْ يقف دائما على أرض صلبة معبّرًا عن قيم رصينة ومواقف مشرفة؛ وينشغل بالكتابة كهمّ حقيقيّ يعبّر عن التحقّق والإضافة.

فهو شاعر خالص - متنًا وسلوكًا - لهذا ليس من المستغرب أن يكون مُقِلّا في نتاجه، كذلك ليس من المستغرب في أن يكرس انشغالا معرفيًا بإنماء مشروعه الشعريّ، بهدوء رصين ودربة مقتدرة، من دون أن يغفل - في الوقت نفسه - عن قراءة ورصد و متابعة مجريات الحراك الثقافي، وتقفّي ما يُستجد من مطبوعات ومنشورات، مع اهتمام بالغ بقراءة صحافتنا المحلية، ولاسيما لحظة أن تستوقفه قراءة مقال أو نصّ أبداعي، إذ لا يتوانى عن الاتصال هاتفيًا بكاتبه لإبداء وجهة نظره، معجبًا ومناقشًا باحتفاء الشاعر المنشغل دائمًا بهموم الثقافة والإبداع.

فما أحوجنا في هذه الأيام لمثل هذا السلوك الخليق بالمحبة والإكبار، لكي نكون دائما أكثر قربًا من أنفسنا وإخلاصًا لوجداننا.

بابلو نيرورا

القنصل

الشاعر الشيلي: بابلو نيرودا، الذي نفخَ الروحَ في قصيدة قارة بأسرها، كان من أبرز شعراء القرن العشرين الذين لهم الفضل في تقريب شعوبهم من وجدان العالم. ولد في الثاني عشر من شهر يوليو 1904 م في قرية - بارال - بوسط الشيلي من أمّ تعملُ في مهنة التدريس وأبٍ من عامة الشعب، يعمل كمستخدم بسيط بسكة الحديد.. لكن وعلى الرُّغم من أن والدته قد فارقت الحياة قبل أن يكملَ شهره الثاني، إلا أن نيرودا الذي كانت نشأته حافلة بالمكابدات الصعبة قد استطاعَ أن يحقّقَ في القصيدة مفقوداته التي حرمته الحياةُ منها، وعاشَ حسب اعترافه في مذكراته الشهيرة التي كان عنوانها (أعترف بأنني قد عشت) حياةً تظلُّ على الرّغم من قسوتها، حافلةً بالمغامرة، ثريةً باللذائذ والمُتع.

لعلّ ترحال نيرودا عبر مدن العالم وقراه، بين آسيا وأوربا وأمريكا الجنوبية كقنصل، ثم كسفير لبلده قد أتاحَ له أن يُعمّق معرفته بالعالم ويضيف إلى القصيدة تشكّلات جديدة لم يألفها نسيجُ الشعر في بلده من قبل. ففي عام 1925 كان « نيرودا » في العاصمة - سانتياغو - يتردّد على مكاتب وزارة الخارجية، لكي توفده، قنصلاً معتمداً، إلى إحدى البلدان؛ ولأنه كان شغوفاً

كشاعر شاب يتوقّد حيويةً ونشاطاً لتعميق معرفته بالعالم عبر مساحات فسيحة، ثرية باللون والموسيقى والحكايات. أخذت رغبتُه تزدادُ جموحاً للسفر والمغامرة والاكتشاف، يغذيها خيالٌ عنيفٌ لارتياد مجاهل أخرى، يتقدّمها توق الشّعر المجنّح الذي ينشرُ حبّات عشقه المترعة بقطرات الضوء ووهج المعنى.

ظَلّ نيرودا، وبصبر عنيد يطرقُ - دونما كلل أو ملل - أبوابَ وزارة الخارجية، متحملاً على مضض ثرثرةَ موظّف ثقيل الظلّ،كان يحدثه بهوس شديد، عن الكلاب الأصيلة ،والروحانيات، وعلم الأنساب، وموسيقى تشايا كوفسكي.. لكن وبعد عامين كاملين لمْ ينلْ نيرودا سوى المزيد من الصُداع وحفنة من الوعود الكاذبة.. غير أن الحظَ قد ابتسم له في آخر الأمر، حين التقى مصادفة بصديق قديم، ينتمي لعائلة (آل بيانتشتي)، وهُم فخذٌ من قبيلة تشيلية نبيلة، منهم رسامون وموسيقيون وقضاة وكتّابٌ ومتسلقون لجبال الأنديز، كانت الحكومة تنفذُ لهم ما يشاءون، وتُلبّي مطالبهم ووساطاتهم في أسرع وقت. وهكذا أُتيح لنيرودا من خلال وساطة صديقه، الحصول على قرار تعيينه. في صيف 1927 سافرَ الشاعرُ الشاب الذي لم يتجاوز عمره وقتذاك الثالثة والعشرين، إلى إحدى المدن الهندية الصغيرة كقنصل لبلاده، حيث تَحقّقَ حلمُ الشاعر الذي استطاعَ أن يُثري تجربته ويعمّقَ معرفته بالحياة السياسية والثقافية، عاقداً الصداقات مع أهم الأسماء في ميادين السياسة والأدب والفن، مثل « المهاتما غاندي ونهرو» موطّداً علاقات حميمة مع

كتّاب فرنسا وأسبانيا، منهم (اراغون، وايلوار، ولوركا)؛ مما كان له الأثر الفعال في إثراء ثقافة وطنه وتطور الحركة الأدبية، ليس في الشيلي وحسب، بل في معظم بلدان أمريكا اللاتينية التي استفادت من مغامرة القنصل والشاعر المناضل بابلو نيرودا.

هكذا تكلم غارودي

على الرغم من أن غارودي كان يدرك تماما مدى قوة وتأثير اللوبي الصهيوني على أجهزة الإعلام الفرنسي، إلا أن ذلك لم يثنه عن عزمه لكشف المزيد من الحقائق الغائبة عن الرأي العام الأوربي، بصدد جرائم الحركة العنصرية الصهيونية. فبعد أن أصدر بيانه الشهير عام 82 (مجازر لبنان .. معنى العدوان الإسرائيلي) وماجرّه عليه هذا البيان من عدوانية متكالبة شنتها ضده وسائلُ الإعلام الخاضعة لسيطرة مافيا اللوبي الصهيوني في فرنسا وخارجها .. جازف مرة أخرى بنشر كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية) الذي تلقى بعد إصداره دعوة قضائية للمثول أمام القضاء الفرنسي، حيث يعتبر هذا الكتاب، والكلام لغارودي: بمثابة تاريخ للهرطقة، وهو تاريخ يكمن في جعل الدين أداة للسياسة، وإضفاء القداسة عليها، عن طريق قراءة تاريخية وانتقائية للكلام المنزّل، وقد أصدر غارودي كتابه هذا على نفقته الخاصة، حين سدّت جميع وسائل النشر الفرنسية أبوابها في وجهه . هذا بعد أن كانت قبل ذلك أبواب دور النشر الكبرى مفتوحة على مصراعيها أمامه. وهكذا وجد المفكر الكبير نفسه محاصرا داخل وطنه فرنسا، ليواجه تحرّشات إجرامية، واستفزازات ترهيبية غامضة. بداية من فرض الفيتو على نشاطه الفكري، إلى تشويهه إعلاميا وتهديده مرارا بالقتل، لا لشيء إلا لأن غارودي قال كلمة حق، مفادها: أن النصوص

التوراتية أو اضطهاد هتلر لليهود، لا يمكن أن يبررا سرقة أرض فلسطين، واقتلاع سكانها وقمعهم بتلك الصور الوحشية والدموية، كما لايمكن أن يبررا الخطة الإسرائيلية الرامية إلى تفكيك أواصر الدول العربية، وتفريقها .

هكذا تكلم غارودي، خارقا التابو الصهيوني ليكشف أساطير السياسة العنصرية الإسرائيلية التي تتبني على مقومات الشعوذة والهرطقة، من خلال تشويه الحقائق، وقلب الوقائع وتزييف الأحداث، كأسطورة أرض الميعاد، والشعب المختار، إلى غيرها من الأساطير الحديثة في القرن العشرين، وأشهرها أسطورة الملايين الستة (الهولوكست) . وقد كشفت مغامرة غارودي بالمقابل عن مدى شراسة الحرب الإعلامية التي تشنها الحركة الصهيونية ضد العرب، وضد الحقائق التاريخية، مما يشي بان السياسة الثقافية والإعلامية تعتبرُ من أهم الأسلحة الاستراتيجية لتنفيذ المشروع الصهيوني، وتحقيق مخططه الاستعماري . وهنا يقودُنا السؤال عن مقترحات السياسة الثقافية العربية في مواجهة الآلة الإعلامية الصهيونية المهيمنة على الرأي العام العالمي، فهل فكرت جامعة الدول العربية في إيجاد أي مقترحات عملية لسياستها الثقافية في الداخل والخارج، لتكفل الحد الأدنى من محو أمية الناشئة والأجيال الشابة التي لم تعاصر مرحلتي النكبة والنكسة، أم أن جامعتنا العربية ستظلّ على وفائها الدائم لصياغة بيانات الشجب والتنديد، وإقامة المهرجانات الخطابية ؟.

يغفيني ايفتشنكو

بابي يار، هولوكوست، فودكا

في عام 1930 انتحر الشاعر الروسي الشاب فلاديمير مایاكوفسكي. قبل ذلك بقليل كانت قصائده تعلق على لافتات المصانع، وأغانيه يرددها جنود الجيش الأحمر، لكن نقاد الأدب في ذلك الزمن، و الذين هم بالضرورة أعضاء في الحزب الشيوعي لم يتذكروا لمايا كوفسكي سوى قصائد الحب التي تُخِلّ حسب رؤيتهم بمفاهيم الواقعية الاشتراكية.. فتحاملوا على الشاعر، وضيقوا الخناق عليه بوسائل لا تعوزها آلة القمع والترهيب.

بعد ذلك بسنوات قليلة جاء الدور على الشاعرة « آنا اخماتوفا» التي اتهمت هي الأخرى بالخروج على انضباطية أدب الماركسية؛ فاختارت رغمًا عنها أن تغادر الجحيم، على طريقة مایاكوفسكي. وبعد قليل أيضا كان الشاعر العربيد « يغفيني ايفتشنكو» أكثر صلابة، ربّما لأن آلة القمع قد لانت بعض الشيء؛ ولاسيما أن أشعاره قد صعدت بعد مرحلة ذوبان الجليد، وبصورة خاصة قصيدته (ورثة ستالين) التي هزت الأوساط الثقافية وقتذاك. ولأن الشعب الروسي بطبعه مهووس بالشعر، ويتميز عن غيره من الشعوب بامتلاك حساسية خاصة، ودرجة عالية من التذوق والقراءة والإصغاء. في هذا المحيط

الصاخب، حقق ديوان « ايفتشنكو» أرقاما قياسية حين بيعت منه مائة ألف نسخة خلال ثمان وأربعين ساعة فقط؛ وعلى الرغم من هذه الشهرة التي حققت مجدا مبكرا للشاعر، إلاّ أن ايفتشنكو ظلّ شاعرًا عربيدًا، يمثل شبهة مقيتة، أدرجته في قائمة الحزب السوداء. حيث قدر له أن يكابد حمل وزر شبهته، حتى ظهور مؤشرات البيروستريكا، ليُرد له اعتباره مع ثلة من الكتاب والشعراء والأدباء المنكوبين. وإزاء هذا التكريم المتأخر عرضت الجهات الثقافية المسؤولة على الشاعر أن يختار زيارة ثلاث دول على نفقة اتحاد أدباء وكتاب روسيا؛ فلبى الشاعر هذا الاحتفاء، حيث كانت إحدى البلدان العربية من بين تلك الدول التي وقع عليها اختيار الشاعر. في ذلك البلد العربي. أخطرت السفارة الروسية، وزارة خارجية البلد المعني، التي بدورها أبرقت إلى وزارة الثقافة في وقت متأخر؛ لأن البرقية وصلت في الدقائق الأخيرة من الدوام الرسمي. وبالنظر لضيق الوقت حيث يصادف ذلك اليوم موعد وصول الطائرة التي تقل الشاعر الضيف، أتصل مدير مكتب وزير الثقافة - وعلى عجل - هاتفيا بمقر اتحاد الأدباء؛ في ساعة لم يكن فيها ثمة أحد سوى البواب العجوز الذي كان لحظتها يتأهب لإغلاق أبواب مقر الاتحاد حين سمع رنين جرس الهاتف، وقد استغرب في دخيلة نفسه لحظة أن أملى عليه محدثه أسم الضيف الذي يشبه إلى حد بعيد اسم معدن مهمل. وهكذا كان على البواب العجوز أن

يكرر الاسم مرارا وتكرارا وهو يحاول الاتصال هاتفيا بمنزل رئيس الاتحاد. في مساء ذلك اليوم دخل الفندق الفخم الذي يقيم فيه ايفتشنكو على حساب سفارته ثلاثة كتاب تقليديين، يعتقدون أن أزمة الأمة العربية تكمن في إهمال فتيتها لقواعد سيبويه، يتبعهم ناقدٌ تقليدي لم يقرأ من مصنفات النقد سوى بضع مقالات لمندور، ومؤرخ متقاعد، وأستاذ جامعي من فصيلة الديناصورات، يتقدمهم رئيس الاتحاد. وأثناء مقابلتهم للشاعر الضيف، اقترح الأستاذ الجامعي أقامة أصبوحة شعرية في اليوم التالي بمدرج كلية الآداب. غير أن سوء الطالع جعل من تلك الأصبوحة الشعرية تتزامن مع حفل موسيقى تقيمه الكلية في الفضاء المجاور للقاعة المقترحة لإيواء صوت الشاعر الكبير. وبالتالي لم يحضر جمهور الطلبة كما كان متوقعا؛ الأمر الذي صعّد من خيبة الشاعر الضيف حين وجد نفسه إزاء نفر قليل، لا يتجاوز عدد أصابع اليدين، والذي ما كاد يلقي، وعلى مضض إحدى قصائده، حتى صمت فجأة فاغرا فاه، اثر فرقعة لضحكة نسوية فالتة، انطلقت من المقاعد الخلفية حيث تختلي فتاة وصديقها. صمت الشاعر مستاءً وحزينا، ثم نطق بعبارة وحيدة، نقلها المترجم بالصيغة التالية : « **يبدو أن هذا المكان لا علاقة له بالشعر**».

بعد أيام قليلة من هذه الوقائع الطريفة، كان الشاعر الروسي: ايفتشنكو سعيدًا جدًا، في تل أبيب، حين استقبله حشد من

الشعراء والمثقفين، على رأسهم رئيس وزراء الكيان الصهيوني. وهذا أيضا من سؤ الطالع.

في بيت الأديب بتل أبيب، قرأ يفتشنكو، وبطريقته المسرحية البهلوانية: قصيدته الشهيرة (بابي يار) التي يدين فيها الهولوكوست. كان من بين الحاضرين الشاعر الفلسطيني: ب.فاروق مواسي، والذي استفزته مواقف يفتشنكو المؤيدة للسياسة الإسرائيلية. فكتب قصيدة بالمناسبة، تحدث خلالها في عبارات مباشرة ومقتضبة، عن الشعر والروس والفودكا والقهوة والمذابح التي ترتكبها قوات الاحتلال الصهيوني ضد المدنيين الفلسطينيين. كانت قصيدة الشاعر الفلسطيني، تعبّر عن لحظة خيبة عالية، رغم ركاكة أسلوبها فنيًا. وهذا أيضًا من سوء الطالع.

خليفة الفاخري

صباح الخير أيها البحار النبيل*..

صباح الخير: خليفة الفاخري**

صباح الخير، لما تبقّى من جسد الحكاية؛ حيث لاشيء يجدي أمام ضراوة الموت التي أيقظت القراءة الخائبة وعجلت اللحظة المحتملة. فالموت يا أخي هو القارئ الأكثر فداحة، والمتفرج الوحيد الذي يهيمن علي شراسة المشهد. لذا حين عجز عن وأد براءة الحكاية؛ تقمّص في أول الأمر هيئة بليدة، وتستر خلف قراءة خاملة لا يعول عليها، قراءة خاضعة لوتيرة واقع ثقافي معاق وقاصر عن الإحاطة ببهاء الكلمة وترويض خيولها الجامحة، وفي آخر الأمر أيّها الحكاء الجميل تربص الموت بجسدك.

كنتَ أيها المشاء مغامرًا شجاعاً تفتح مغاليق المعرفة، وتقتحم كنوز الحكايات. هاجسك الوحيد: انتصار الحياة؛ فجاءت حكاياتك متخندقة ببلاغة الحفر في تربة المخيلة الأشد مجازًا وتغورًا في اليومي، فصرت بحق حكاءً وشاعرًا وراويًا سامقاً، يتموقع برصانة واقتدار، ضمن أبرز المؤسسين لديوان النثر الليبي، الذين منحوا الكتابة عطر المفازة ونكهة البحر. كنت صياداً ماهراً تقود مراكب السرد في ثقة القبطان النبيل الذي لا تعوزه حكمة إهمال الجيف والنفايات تطفو على السطح مفتونة ببرق عدسات

التصوير وضوضاء الصحافة، واخترت أن تظل وحدك تغوص بعناد إلى أقصى القعر، منقّبا عن درر المعنى، ومفردات الحكاية الغائرة في ذاكرة المدينة، لكنك لم تجد إزاء حماقة التهميش سوى اللجوء إلى صفة المصحح اللغوي، متشبثاً بتقويم الرداءة، مكتفيا في الحدّ الأدنى بهذا الدور الهامشي الذي يكرِّس الكسوفَ رأفةً بحلم الحكاء؛ حيث يُمسي الانزواءُ في ركن مطبعة مهملة، وبأجرٍ زهيدٍ، جديرا دونما ادعاء بمعالجة أمّية الكتبة، منكباً على جثث النصوص الردئية، كجرّاحٍ يُدرك تماماً جسامة الخطأ اللغوي، مما جعلك أكثر توجعًا من الكلمات ذاتها، التي تمزقت دلالاتُها وسط مجانية المسوخ، الذين اقتحموا منابر الثاقفة وقاعات الأدب.

صباح الخير أيها البحار النبيل،

ومعذرة إن تزامن رحيلك مع مجازر شارون، وفتنة العولمة التي تكتسح ثقافُتها أخلاقَ الناشئة الذين أمسوا يتطلعون بشغف لسراويل مايكل جاكسون، حيث لامناص لمواسم الحكايات إلا أن تنسحب مرغمة إلى محطات الغبار، ومرافئ النسيان.

معذرة أيها البحار النبيل، على غفلتنا المريبة، ومعذرة لسهونا، فها أنت ترحل وحيداً تاركاً حكاياتك المرحة وسادة مسك، تنثر النجوم في ليل الخائبين.

---

* كتبت بأيام قليلة بعد رحيل الكاتب خليفة الفاخري .

** خليفة الفاخري (1942 - 2001) كاتب ليبي . انشغل بخدمة السرد، وترك اثارا مميزة

هيرتا موللر

يومذاك كان قد مضي قرابة أربعة أسابيع عن إعلان الأكاديمية السويدية بمنح جائزة نوبل للآداب 2009 للكاتبة والشاعرة الألمانية - من أصل روماني - (هيرتا موللر) . ما انفكت وتائر الاحتفاء بهذه المناسبة تعلن عن بهجتها في الأوساط الثقافية والإعلامية بألمانيا. وحتى إن فترت حماستها قليلا بعد أيام قليلة؛ لكن عناوين الصفحات الثقافية في برلين بصورة خاصة وألمانيا عموما، ظلت لأسابيع تشيد بهذا التتويج؛ فقد شكل الخبر منذ لحظاته الأولى مفاجأة لم تكن متوقعة بالنسبة للرأي العام الثقافي في ألمانيا. ربما لأن المتوّجة - وعلى الرغم من شهرتها وانتشار أعمالها التي ترجمت إلى قرابة عشرين لغة، ونيلها للعديد من الجوائز - لكن ثمة من يقول تلميحا وتصريحا: بأن الكاتبة لم تكن منافسة قوية لقائمة تضم مرشحين أكثر حظوظا. غير أن الحدث في مظهره الإعلامي يعد بالنسبة للألمان مفخرة تضيف تأكيدا للاعتراف بمكانة الأدب المكتوب باللغة الألمانية. وكذلك للكاتبة نفسها التي أدهشتها المفاجأة. (هيرتا موللر) التي هجرت دونما رجعة، موطنها الأصلي: رومانيا، لجأت إلى ألمانيا في سنة 1987، ومنذ ذلك الحين لم تغادر منفاها في برلين. وتبعا لانعكاسات هذا الحدث المفاجأة ،كانت الكاتبة من ألمع نجوم معرض فرانكفورت

الدولي للكتاب، حيث تهافت الناشرون، سواء من ألمانيا أو خارجها على شـراء حقوق إعـادة طباعة كتبها التي بـدأت تلقى رواجـا متزايدا، فقد صرحت دار نشر (هير فيرلاغ) بأنها قد طبعت (120000)نسخة من كتابها الأخير، وذلك خلال الأسبوع الأول من إعلان الجائزة .. وفي نفس الوقت قد تسابقت بعض مؤسسات ودور النشر العربية هي الأخرى لشراء حقوق طباعة وتوزيع بعض عناوين موللر، وكان التنافس بين مشروع (كلمة) بهيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الذي كان سباقا إلى ترجمة آخر روايات هيرتا موللر « أرجوحة النفس « وبين مساعي الهيئة المصرية للكتاب، بنيل حقوق طباعة ونشر أربعة عناوين ضمن سلسلة الجوائز. تشير العديد من القراءات بأن الكاتبة في معظم إبداعاتها شعرا ونثرا قد كانت أمينة لذاكرتها الأولى إذ تتفق توصيفات المطلعين على أعمالها بأن كتاباتها الشعرية والنثرية، إنما تعبّر عن ضراوة هموم إنسانية وشراسة تفاصيل معيشية تتصل بوطنها الأم .ومن بين ما جاء في تعليق الأكاديمية السويدية بأن أعمال (هيرتا موللر) قد صورت «أفقا واسعا لمعاناة المحرومين».. كإشارة تعوزها البراءة، تعلن دون مواربة عن أشادتها بانتقاد الكاتبة للقهر الاجتماعي والسياسي في المعسكر الاشتراكي بأوربا الشرقية. وكأن النوايا هنا مازالت ترمي إلى تصفية بعض الحسابات مع الإرث الاشتراكي.

محمد سالم الحاجي

نسيان ما لا ينسى

قبل رحيله في منتصفِ عقد التسعينيات* من القرن الذي مضى، كان الأديب القصّاص(محمد سالم الحاجّي) قد أضاف لمدونة السرد في ليبيا « مجموعتين قصصيتين، هما: « ثلاثة وجوه لعملة واحدة « و» مشاهدات في بحر الدم «. وعلى الرغم من أن (الحاجي) من الشخصيات الأدبيةِ الفاعلةِ والمؤثرةِ التي يَصْعب نسيانها، لكننا - كما يبدو - قد نسيناه.

النسيانُ هُنا يَتّخِذُ - هو الآخر - عِدّة وجوهٍ لنسيانٍ واحد. ربما لأن شخصيةَ الحاجّي قد انطوت على شيء من الخجلِ وإيثارِ العزلة، بحيث ظلّ حوارُها باطنياً في الغالب، وهذا ما تشي به آثارُه القصصية التي تعكسُ بعضا من ملامح سيرته؛ فأبطال قصصه غالبا متذمّرون وقلقون، يتعذّر عليهم التكيف مع المحيط. وربما النسيان هنا، قد يُعد على وجهٍ أكثر براءة؛ بمثابةِ عمليةِ هضمٍ لتجربته، لأن آليةَ الهضمِ حين تأتي على ما تتلقّفه من تجارب الآخرين، من شأنها أن تمتصَّ المعلومةَ وتستوعبها إلى الحدِّ الذي يصل بها إغفالِ المصدرِ ومحوِه من الذاكرةِ على نحو تلقائي. ومن وجهٍ آخر - وهو الأقل براءة والأكثر جرما - قد يُعد النسيان بمثابةِ نكرانٍ وجحودٍ، لأنه، ومنذ سنةِ رحيلِ الحاجي عن عالمِنا،

* توفي الكاتب محمد سالم الحاجّي في 11 ديسمبر 1994.

قلّما يُشار إلى آثارهِ وإسهامِه المتميز، في مدونةِ القصةِ الليبية. وهي مثلبةٌ تشي بأزمةِ كيان، لأنّها لا تقتصر عليه وحده، بل تشمل مبدعين آخرين طواهم النسيان. ولعلّنا هُنا إذ نتساءل عن أسبابِ هذه الظاهرة المقيتة، لحظة أن يُغَلِّف السهو تجربةَ أدبٍ وحياةٍ بهذا القدر من التفرّد والثراء، إنما نتهم أنفسنا، وكأن ثمة من يُحاول محو آثارها وطمس ملامحها، فباستثناء ما استدعته الببليوغرافيا على حياء وهي تقدّمُ توصيفاً موجزاً وتقليدياً ووثائقياً، حيث يُكتفي فقط بذكرِ ما تواترَ في مثلِ هذه الانشغالات التوثيقية، لم نجد في مدونة الأدب الليبي بقضها وقضيضها، أيما اعتناء بنتاجِه القصصي من لَدُن النقادِ والمهتمين بمسيرةِ الأدبِ القصصيّ في هذا الوطن المبتلى بمثالب نكران الذات.

عَرَفْتُ الحاجّي شحنةً من الأسئلة التي لا تكفّ، أسئلة تتعلّق بالوجودِ والكلمةِ والمرأةِ والمكان. كُنّا في يوم ما نَلتقي، وكنّا نتحاور، ونحترم اختلافنا وتنوعنا. عاش محمد سالم الحاجيّ طيلة حياته مبدعًا وعاشقًا ورحالة، ثم غادر ضفة عالمنا ليخوض رحلة أخرى. لكن ما تركه من كلمات؛ يظل كفيلا بإزالة شبهة الموت، على الأقل بالنسبة للقراءة الأصيلة. فمازالت أفكاره حية ونشطة وجامحة؛ لهذا هو باق وحاضر بقوةٍ بيننا، وعلى الرغم من ذلك ما من أحد - كما يبدو هنا - يجيد كرامة الإصغاء سوى الندرة. وهذا من سوء الطالع.

جميل حمادة

أيام باب البحر

يذكّرني صديقي الشاعر جميل حمادة بقصيدة لم تكتب، ببحر بعيد لم نذهب إليه بعد، مثلما يحيلني لترقّب ما قد تحمله شباك صيد، قدّر لها أن تظلّ دائما خفية ومدهشة وثرية وغامضة ونابهة ومشاكسة وذكية، ولاسيما عندما تُرمي في لجة الليل، كذلك يذكّرني بأسئلة وكلمات وباقات ورد، وبلدان بمذاق الخيال، ومآثر بعيدة نخافُ أن تضيع في زحمة العالم. يذكّرني دائما بضرورة أن يكون لك صديقًا طيبًا وصاخبًا وطفلا، كي تستأنف أحلامك كل يوم وأنت أكثر ركضا ومرحا باتجاه المستقبل. يذكّرني أيضًا هذا الصياد الماكر، والرحّالة العارف بتواريخ الغربة وجغرافيا الشتات، بمدينة شبيهة، لها مالها من شوارع ونوافذ ونساء وحدائق وحمّامات، مدينة مستبدّة تكتسح الشعر والنوم والعطر والسينما والتسكّع والحكايات؛ هي دائما حاضرة في حواس الحزن والفرح والموسيقى وعربدة الذاكرة. مدينة حالمة وبهية وشاسعة، لا تريد مهما كبرت أو كابدت أن تبرح ضفاف طفولتها. لهذا يذكّرني جميل كلّما تمعّنت في صوره وقصائده وحكاياته وظلاله وفوضاه بأشياء أحيانا يتعذّر العيش من دون سطوة بهائها، كالشغف بالقطارات، وتعلّم الرماية والبحر وركوب الخيال، وأن الحياة ستكون حتما فارغة وموحشة

وبليدة إذا خلت محطاتها من أصدقاء: صنو الندرة بصفاء هذا الطفل الذي لا يملّ اللعب، على الرغم من فداحة النار التي تلتهم الألوان لكي يعبر حريقها. يذكّرني بعد مرور ثلاثين سنة، هذا الغزّاوي المكابر، هذا الصياد البارع، هذا الكبير كطفل اسمه جميل حمادة؛ يذكّرني الآن دونما تكلّف أو مراوغة بصديقي الحميم الشاعر : جميل حمادة؛ أيام باب البحر، عندما فتحنا سماء قلوبنا للغة الماء والطير والشجر والموسيقى، وأيضا لمريدين ومنصتين وجلاّس عربيدين، ظنناهم في أول الشعر، من سلالة الشنفرى أو رهط المتنبي، وإذ بهم محض كائنات دعية، تنطوي خاماتها على مسروقات شتى، فقط: مجرد متسولين بهيئة من لا يعوّل عليه؛ فأين هم الآن يا جميل حمادة، أولئك الذين شاركناهم ثريدنا وأوقات خيالنا وسخاء بيوتنا، أين هم فتية النفير الكاذب، الذين لم يكونوا بعد قليل غير لصوص ظرفاء. لكن لا بأس يا صديقي؛ فعلى الرغم من هذه الهشاشات العابرة؛ ستظل الحياة في غاية البهاء، مغوية ومثيرة، وساحرة ولذيذة عندما يتكفّل الشاعر بتضميد جراحها، حيث يكفي أن يجاور بين تفاحة وقصيدة؛ لتبدو مغامرة السفر أكثر ضرورة وتطلبا؛ لكي نلتقي من جديد؛ لنثير ضحكًا لا يُملّ

مشرق الغانم

كَمَنْ يتنصّل من جريرة خياله

في الليلة البارحة تذكرت صديقي الشاعر العراقي مشرق الغانم. انقضى قرابة ربع قرن على هجرته إلى الدنمارك، والتي خطط لها بتكتم شديد، ومثابرة شرسة.

وصلتني منه بعد هجرته بوقت قصير بطاقات بريدية، ضمنها وبسخرية مرحة شيئا من تفاصيل حياته الجديدة في غربته.

ثم تقطعت السبل.

التقينا مصادفة خلال أيامه الأولى بطرابلس، عندما كان يبحث عن مأوى آمن له ولأسرته الصغيرة. وطيلة السنوات الثلاث التي جمعتنا بدا شهمًا ومكابدًا في صمت، كما لو أنه يخطط لحياة أخرى. كان في اللحظات التي يشي فيها ببعض مخاوفه؛ يبدو قلقًا على مستقبل طفله الوحيد « وجد».

وحتى إن باح ببعض أسراره؛ لكنه لا يفضي بها إلا كإشارات لمّاحة، وماكرة بذكاء حاذق، عليك أن تعمل حدسك لكي تفكك شفراتها.

في طرابلس عمل مخرجًا صحفيا في أكثر من مطبوعة ليبية. كان رسامًا، وشاعرًا عنيدًا يعامل نصوصه بكثير من القسوة والتقشف. متهيبًا يمرّر قصائده دونما اهتمام، كما لو أن وطأة الخيبة جعلته لا يعوّل كثيرًا على القصيدة؛ ليبدو كمن يتنصل من جريرة خياله.

مرات يروق له أن يقرأ بعض شذراته في جلسات خاصة، بتواضع كبير دونما ادّعاء.

قلت الليلة البارحة تذكرته.

لست أدري كيف طافت صورته في ذهني. وضعت أسمه على محرك بحث الغوغل. ولكم كانت الفاجعة كالصعقة عندما علمت بأنه، ومنذ عامين قد رحل، رحل مرة أخرى، لائذًا بهجرته الأخيرة إلى عالم الأبدية.

قصائد قصيرة للشاعر : مشرق الغانم

« كيف لي أن أغفو ثلاثين عاما**

وأصحو على وقع قامتك

وأراك مثلي

جالسا في حانة نائية وتسألني عنّي ... »

●●

**من قصائد للشاعر مشرق الغانم .عن موقع « جهة الشعر. »

« أيها الجمال

اتكئ قليلاً إلى الخلف

كي أسدّد إليك ضربتي»

●●

« ماذا أصنع بهذه الخيبة

تأكلني ...

وينهشني الظلام لصق المقبرة »

•عمّان 12 نوفمبر 2016

انتوني بيرجس

كلماتٌ تحلمُ، وتنبضُ، وتشيرْ

(أنتوني بيرجس) كاتبٌ وروائـيٌ انجليزي، ولد في أواخر العقد الثاني من القرن العشرين، من أشهر مؤلفاته: رواية (البرتقالة الآلية)، التي تحوّلت إلى شريط سينمائي في سبعينيات القرن الماضي، برؤية المخرج (ستانلي كوبريك)..لكن ليس هذا بيت القصيد، فأنتوني بيرجس قبل أن يكون روائياً ،كان شغوفاً بالموسيقى، ثم ما لبثَ أن صارَ كاتباً بعد الأربعين،تحت وطأة الألم، عندما أيقنَ أن الموتَ يتربّصُ به. هكذا اخبره الأطباءُ؛ بأن أقصى فترة سيعيشها لا تتجاوز عاما واحدًا على أقصى تقدير، إذ شخّصوا لديه ورماً سرطانياً في الدماغ.

كان بيرجس وقتها؛ في ماليزيا ،معجباً بالإسلام إلى حدّ الوله الصوفيّ، وقد أعلنَ في خطفة إيمان نورانيّ عن نيته باعتناق الدين الإسلامي. أطلقَ عليه الماليزيون اسم (يحي بن عبدالله)، لكن صدمة المرض أرغمته أن يرحل عاجلا إلى انجلترا، متخلّيا عن إشهار إسلامه، حيث لم يبق من همٍّ يُشْغِله سوى مواجهة الموت، مُقتَرحاً على نفسه في أول الأمر اللجوء إلى تأليف الموسيقى؛ لعلّه يكسب شيئاً من المال يتركه لأسرته الصغيرة، ولاسيما أن أجله قد أمسى وشيكا. لكنه بعد لأي خائب، قد أيقنَ

بأن الموسيقى أكثر تعذّرا من أن تستجيب لإمكانياته المتواضعة ،مستدركا رداءة موسيقاه التي لن تصل به إلى إيقاظ (بيتهوفن) بمخيلة كمنجات انجليزية، لذا جرّب لعبة السرد، من دون أن يُهملَ حُلُمَ المُوسِيقِيّ. لأنه في دخيلة نفسه كان على يقين بأنه سيبرع في هذا الصنف من الكتابة؛ بعد أن استبدّ به هوسٌ عنيفٌ، في أن يوائم بين الموسيقى والسرد، حيث ظلّ هاجسهُ الأهمّ، تكريس ما تبقى له من وقت لانجاز مشاريع روائية تتميزُ بقدرتها على الحدس والتوقّع، مقتفيا رؤى مواطنه (جورج أرويل). وهكذا برع أنتوني بيرجس في كتابة الرواية. والمسألة هنا ليست محض لعبةِ حظ، لأن الرجل قد انغمر بكل حواسه وطاقته ومشاعره ومعرفته وخبراته وطموحه وخوفه، مثابرا دونما كلل على تجريب أسلوب سردي يتّسم بخصائص جمالية أصيلة، ضخّ عبرها كل ما يكنّه من شغف للموسيقى، لتشكّل صوتاً داخليا يُجاور بين دلالة الكلمات.

وهكذا انكبّ الرجل العليل على انجاز مشاريعه الروائية بسرعة فائقة؛ ليقينه بأن ثمة من يطارده ليفرغ رصاص مسدسه في رأسه، حيث صار إحساسه بالزمن حادا وعنيفا.

كتب من دون أن يفكّر في الموت. كانت معركتُه الأكثر ضراوة هي الكتابة؛ أي الحياة، لا الموت، وقد مكّنهُ هذا الانغمارُ من أن يتجاهل الموت، ويهمله؛ بل وينساه، لكأنه مجرَّدَ وهمٍ؛ لا حقيقة ماثلة تتربّصُ بتخريب دماغه.

صمد بيرجس بطريقة احتفالية، تنطوي على قَدْرٍ كبير من الحكمة والمتعة والشغف الذي لا يُحدّ، وعاش قرابة أربعين سنة أخرى، ابتكر خلالها أكثر من أربعين رواية جعلته من بين أهم الروائيين في عصره. ترجمت إحدى روايته إلى العربية، خلال عشرية التسعينيات من القرن الماضي في مصر، موسومة بعنوان (المسلمون قادمون). وهكذا: تفوّق أنتوني بيرجس على مرض السرطان بطريقته في صناعة الحياة، مقترحاً على نفسه الانهماك في الكتابة عوضًا عن انتظار الموت، فتوطّنت روحُه في الكلمات، لأنه بعد أن واراه الثرى، كان قد ورّث اللغةَ، حياةً باذخةً تنبضُ بالكلمات، ستظلُّ إلى زمن بعيد فاعلةً ومؤثرة في مسيرة فنّ الرواية العالمية؛ لأنها كلماتٌ تحلمُ، وتنبضُ، وتبصرُ، وتشيرُ.

طرابلس

كنت أكثر فتوة وشبابا حين دخلت طرابلس لأول مرة، كشاعر يتأبط قصائد خجولة، طويت على عجل في ورق مجعلك. كنت أكثر حياء وأنا أتلكأ مرتبكا بأسماء محطّات حميمة، ومقتنيات سفر بائسة تتشظى في عوالم التيه، وأتأتئ بعطر فتيات جميلات كبرن في قصور من ورق وحبر، هنّ تأشيرة دخولي إلى جهات وعواصم تدحرجت بألفة في سماء الشعر.

وقتذاك لم تكن طرابلس بالنسبة لي سوى جنة محلوم بها؛ لذا لم أتجاسر وأنا أمشي بمحاذاة حلمها على لجم هوسي وفتنتي، واعتقال مخيلتي الجامحة، لمّا ولجتها ذات صباح ناعم ومطير، عبقتْ أنفاس بساتينه بعبير الغوايات؛ فتركت الغرام على هواه سادرًا بشهوة التسكّع: وحيدا أمشي عبر مسارب التاريخ متأملا بخشوع؛ كمن يقيم صلاة البهاء المقدّس: إعجاز السراي وهي تتربّع على خمسة قرون ثرية. ثمّ: (وأنا أمشي) مأخوذا بعتاقة عمرانها: شوارع قديمة ذات بهاء أصيل صقلته مطارق الذاكرة، أزقّة صنفرتها الطمأنينة مستقرا لحكايات لا تأفل.

منذ عشرين سنة أو أكثر غمرتني هذه السيدة الكريمة بفيض من حنان وقور وسامق؛ كأنّها أمّي وهي تربت على وجعي برأفة لم أتعوّدها من قبل، أنا الجافل من ضراوة الثكنات البعيدة، كنت أمشي

بلا شيءٍ في جعبتي، سوى ما قدّه الضيم من كلمات صهرت أحرفها في أوعية من سلالة النثر.

مذاك عشقتُ طرابلس، كما يقال « من أول نظرة ».

ولم أحدس في لحظتي تلك بأنها بعد بضعة أشهر ستكون قدري المؤبّد الذي لا فكاك من سلطة سحره الغامض، وملاذي الآمن وقبري الأخير؛ ففيها وبها استطعت اكتشاف عشرين طريقة لفكّ شفرة التيه، وترويض وحشية الخيال، كما ذوّبت في ليلها زبدة القمر وعذوبة الكلام؛ فتناثرت عبر تضاريس صدرها الدافئ أجزاءُ روحي. وعبر باب الجديد، وباب الحرية، وشارع الرشيد، وباب بن غشير، أيقظتُ ذاكرة أبي، الذي طالما رسم بآهاته أروقة أسواقها وأقواس شوارعها العتيقة، واختزلتُ لأجلها كل ما أفضت به سيرُ العشاق الذين عبروا أروقة البهاء قبلي، لكي أضيف ملحًا جديدًا لطرابلس، سيدة البحر التي: اسم قصيدة لثلاث مدن تتوحّد في كلمة. لأجلها منذ عشرين حولا، أو أكثر، وأنا أطوي الخيال وأمشي.

• طرابلس يناير 2001

معجم الطين

في بعض الأحيان قد تجتذبنا بقوة تلك الاختلاجات التي نستشعر فيها بحنين عنيف إلى بهاء الطين وألفته. هذا الخاطر استدرجني إليه طفلي آسر ذو الأربع سنوات، والذي لأمر في نفسه صار تواقا لسيمياء الأرض، حين خاطبني في توسّل (بابا اشريلي تراب). وهو هنا لا يستخدم أية مجازات شعرية تتجاوز إدراك طفولته، بقدر ما كان يقصد ترابا حقيقيا؛ كذاك الذي تحسسه بدهشة أنامله البريئة عندما ذهبتُ بصحبته ذات مساء للتنزّه في حديقة الحيّ. قال: « نبّي تراب يا بابا». كم تبدو هذه العبارة جارحة وملحة وغامضة، حين تنساب رقراقة وحارة على لسان طفل، ولاسيما بالنسبة لنا نحن سكان الشقق، الذين تواطأنا مع الضيق والاختناق والظلمة والضوضاء، وصرنا مع مرور الزمن ننأى كثيرا عن التراب، ننسى شكله وعبقه وحرارته وطعمه. الآن فقط، وبعد أن استوقفتني عبارة طفلي آسر، بدأت أدرك جيدًا بأن ثلاثة أرباع ما يعانيه سكان الشقق الضيقة من قلق وتوتّر ينشأ تحديدا عن غياب التراب؛ فلم تعد حواسنا على تماس مع هبات الطبيعة؛ فها هي الجدران تنطوي على رئة أحلامنا، محمولة بمشاكلها وهمومها وقضاياها. جدران مقيتة وعازلة تفصلنا عن نبض الطبيعة وأنفاسها ورائحتها ومذاقها. كل شيء

يحيل إلى ضجيجه، حتى الصمت لم تعد له تلك النكهة التي كنا نستشعرها من لدن الطبيعة الآمنة. فكرتُ جادًا في تلبية رغبة الصغير آسر، واستبدال شقتي بمنزل ارضي متواضع، يجمع في حنوّ بسيط، بين هبة الأرض وضوء الله؛ بحيث يتكرّم دونما أبّهة؛ لاحتضان حديقة صغيرة تستجيب لخيال بريء، تربّى شغوفا على تراب الوطن. ولكن الطامة أن التراب في طرابلس وضواحيها بدا مستعصيا وعنيدا، وصارت سوقه تولي ظهرها للفقراء من محدودي الدخل، بحيث لن يكون في وسعي شراء بضعة أمتار تصلح لإيواء وتربية تلك الحواس الصغيرة. ومن ثم يصعب الاستجابة لرغبة طفل صار أكثر إلحاحًا في امتلاك مساحة رحيمة من تراب بلاده الطيبة؛ لكي يتمرغ على أديمه ويتحسسه مستنشقا رائحة وجدان الأرض التي تربّى على حبّها.

هل صارت مسألة العودة إلى الطين صعبة إلى هذا الحدّ؛ لتمسي مجرد الرغبة في امتلاك حيز صغير منه في عداد المعجزات السبع؛ وكأن السعي لتحقيق مثل هذه الأحلام المشروعة بات يندرج في قائمة الترف الإضافي؛ لحظة أن تغدو العين بصيرة واليد قصيرة، وأننا حتى لو افترضنا بعدم استحالتها، إلا أن لغة السوق تؤكد كل يوم؛ بأن المسالة أمست متعذرة جدًا بالنسبة لمحدودي الدخل، الذين لم يعد في وسعهم الحصول ولو على حيز بائس من تراب الوطن الذي يحبونه، ويؤمنون بمعتقداته ويقدسون رموزه ويعشقون سيرته؛ فهل أمسينا فجأة خارج

أجندة الوطن؟ وأن من يملكون المال هم وحدهم من يتمتعون بخيراته ومباهجه؛ بحيث صار كل التوق ينأى عن حواسنا، بما في ذلك التراب الذي خلقنا من بهاء حكمته.

أسماء

« عندما ينقسم الواحد، فأن الأجزاء تكون محتاجة إلى أسماء

وفي الدنيا ما يكفي من أسماء.. وعلى المرء أن يعرف متى يتوقّف

بهذا يتجنّب الإنسان المتاعب»

(لوتسو / من كتاب التاو)

إن إضافة اسم للأشياء، هو بداهة، ممارسة نشطة وفاعلة للغة التي تمثل في جوهرها سيمياء حقيقية للحياة. ومن ثم فأن إلحاق اسم للكائنات اوالجهات والأمكنة، يعد دلالة للمسمّى، يستدلّ به على الحى والجامد، حيث يتعذر علينا أن نتخيل معرفة كائن لا اسم له؛ لأن إضافة الأسماء، اقلّ تعقيدًا من أن تظلّ الأصوات والصور نكرة بلا ظل أو أثر يقتفى؛ ففي الصحراء كان البدوي رغم صلابته أكثر بساطة وعفوية، وهو يقترح أسماء مفازته ويسبر غور الأشياء، عبر علامتها الخفية التي تتركها فوق الثري؛ حيث استطاع أن يروض التيه ويفتح مغاليق المجاهل الغامضة لصالح الحدس والفراسة التي لا تخطيء في ترجمة وجهة الريح، وتأويل رحلة الطير، واقتفاء اثر البعير ومعرفة أسراره عبر قراءة الأثر؛ ليكتشف بغرابة طريفة: أن البعير الذي

مر (اعور وابتر وأعرج) في لحظة خاطفة تكتفي باللمح العابر؛ بينما يتعذر علينا نحن سكان المدن قراءة الأثر على أرصفة مبلطة وطرقات معبدة، يحيطها الصخب وتحفها الضوضاء. ولعل الأمر يبدو أكثر حيرة وصلابة أيضا حين ترتفع بسخاء ثلاثة آلاف عام من التاريخ الحضاري مدينة بالغة العتاقة مثل طرابلس، الثرية بعديد المآثر والحفريات، حيث مرّ الرحالة والقراصنة والغزاة والتجار والمستكشفون والشعراء العشاق؛ لتقف في نهاية المطاف علي عتبات الألفية الثالثة، وهي تجسد المتاهة الأكثر غموضا من صحراء البدوي.

في الوقت الذي تختزل فيه تقنية الاتصالات الزمن والمسافة؛ يرتبك الزائر بطرابلس وهو يبحث عن مقصده في مدينة تداخلت شوارعها بلا أسماء أو عناوين، وتكدست منازلها في خرائط عشواء دون أرقام تشير إليها، وكأن إلحاق اسم أو رقم، أحجية معقدة، وصناعة بالغة الضخامة والتكاليف، تضاهي في إستراتيجيتها وتعقيدها مشروع إنشاء سكة الحديد، أو هي من سلالة فنطازيا الخيال العلمي، لكي ننتظر ثلاثة آلاف سنة أخرى، حتى نحصل علي عناوين واضحة تدل عليها.

رئة

النافذة اكتشاف جميل لتجديد هواء الغرف وإضافة الكثير أو القليل من الضوء لتذويب فتامة العتمة. النافذة أيضا إطلالة مريحة على الخارج تتيح قدرا من العلاقة مع المحيط وعبرها يمكن التعرف على ما يحدث في الشارع أو الفضاء الخارجي حيث يمكن إذا شئنا أن نجعل إطلالتها تفضي إلى حديقة أو بستان أو نهر، وأن تطلّ على كل ما هو جميل ومبهج؛ لكي تتيح للنظر فسحة للصلاة والتأمل في تجليات لا حصر لها تجعل الحياة أكثر خبرة وأمنا وطمأنينة. وبغض النظر عن الجهات الأربع حيث يمكن لصاحب المنزل إذا شاء ابتكار جهة خامسة أو سادسة من دون الإخلال بشروط التصالح مع ضوء الشمس. لهذا وذاك لا نجد أية غرابة في أن تحتل النافذة حيزا مهما من شغف مهندسي العمارة؛ فوهبوا لها أشكالا متنوعة وتخطيطات مختلفة، وزينوا جنباتها وحوافها بالرخام والنقوش والزخارف، كما أنشغل بها المبدعون من شعراء ورسامين، واختزلوها في إشارات اتخذت مجازات شتى من بلاغة اللون وأعجاز الصور التي ابتكرتها المخيلة. ولأن النافذة هي رئة المنزل اكتسبت هيئتها ملامح غاية في البهاء عندما اخترعت لها ربة البيت الستائر والشراشف المزينة بالأزاهير وفسيفساء الألوان القزحية. وعلى

الرغم من أن تاريخية النافذة بدأت فقيرة وساذجة من حيث خصائصها الجمالية، غير أن فن العمارة وعبر مسيرة تطوره التي راكمت العديد من الخبرات والتجارب، قد أضاف للنافذة طابعا فنيا بالغ الخصوبة والثراء، باعتبارها جزءا حيويًا من فضاء حميم ومكان أثير. ويتعذّر أن تجد بناية من دون نوافذ أو شرفات؛ فحتى السجون قد حرص مصمموها على ترك كوى صغيرة بحجم الكفّ الآدمية لكي تتنفس زنازينها. ونحن إذا لزم الأمر قد نتفق دونما قيد أو شرط على إقفال نوافذنا بإحكام بالغ القساوة، عندما تكون عرضة لغزو الغبار والحشرات والهواء الملوث، وقد نتفق أيضًا على حمايتها بقضبان من الحديد الصلب، كذلك بأن نضيف إلى أبوابها المزيد من الأقفال عندما نرتاب في نوايا اللصوص ومخططات القراصنة. قد نتفق أيضا حين نستشعر خطورة ما، تهدّد أمننا، على إلغاء النوافذ من خرائط بيوتنا وقصائدنا ومخيلاتنا، لكن بالقدر الذي يترك لنا حدا أدنى من الهواء النقي؛ حتى لا نختنق.

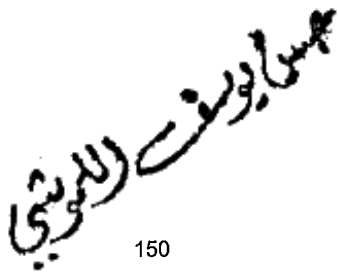

حياة

صديقي، مخرج الدراما: عبد السلام حسين، الذي يكرس معظم انشغاله لصناعة الصورة، والانخراط إلى حد الهوس في تفاصيل جمالياتها وفنونها وتقنياتها، زارني ذات يوم في بيتي، مرحًا وبشوشًا وساخرًا كعادته، وأيضا كعادته كان فنانًا وهو يستدرج الحديث - وبشعرية عالية - إلى عالم الصورة، وهو عالم ثري وآسر؛ إذ يستهويني أنا الآخر الكلام في الصورة وعنها، لاسيما وأن معظم ثقافة عصرنا تعتمد على فن الصورة. بعد حيز قصير من الصمت، فكر صديقي، ثم ومن دون أية مقدمات اقترح رسم لوحة مهولة، تسفر تفاصيلها المربكة عن وجود صحراء بحجم قارة بأسرها، صحراء شاسعة من الرمال والعزلة والشمس والوحشة والرياح الشرسة، صحراء قاحلة ومتوحدة ونائية لا حياة فيها؛ سوى ما يمليه السعير من حر لا يطاق. ثم أقترح عوضًا عن الموت والجحيم الذي يسكن خلاياها أن نتخيل عصرًا مطيرًا، مما يقتضي إعادة تأثيث كيانها بكل ما يتمخض عن وفرة الماء من كائنات نضرة، وأسماء طازجة، ومخلوقات أكثر استئناسا ومرحا وألفة. وقبل أن يغادرني، ترك لي الخيار في إضافة مزارع مهولة من البرتقال والزيتون والعنب، وحتى الكرز إذا شئنا، تاركًا عبارة شرطية مفادها: أن ما نتخيله

هو في حقيقة الأمر واقعٌ حيٌّ لا غبار عليه؛ فقط علينا أن نضع اللمسات القادحة والذكية على الكلمات التي تليق بقصيدة مديح للحياة، حين تبعث من جديد، وذلك إنصافا لصناعة الصورة في شكلها المتخيل حتى تكون بارة بالطبيعة التي توائم بين الموت والحياة في جسد واحد، مفضيًا من ثم: بأن الاعتراف بمعجزات الماء لا يشكل فقط تحديا للفناء المشخص مجازا بهيئة الموت؛ بل هو في اللحظة عينها، يعد اعترافًا بالموت كطاقة خفية لا تنمو الصورة إلا ضمن نسيجها.

مرّ عام وأنا لا أفكّر في شيء إلا في ابتكار الكلمة الجديرة بهذه الصحراء التي ظلت طيلة الدهر تغزو خارطة كياني بأشباح موتاها، حيث تمكّنت في أول الآمر من تحصين مخيلتي ضد ما يشي بالخوف، حتى يُتاح لي حشد الدلالات التي بهيئة أعمدة صلبة جديرة بأن ترفع سقف سماء سخية بالغيوم والكواكب وصور البهاء؛ لهذا صرت أكتب، وأكتب حتى تحولت القصائد إلى نهر دافق، أينما يذهب يفتح بلادا جديدة.

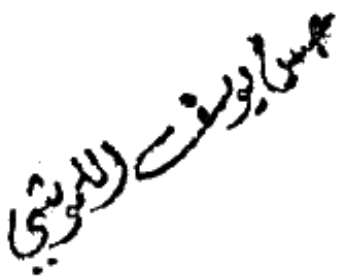

جدار برلين

كان جدار برلين شبحا مخيفا يثير الرعب والفزع في نفوس من تجرعوا مرارة عزلته. وكان جريمة نكراء لا تغتفر ارتكبت في حق الأبرياء الذين ما كادوا ينفضون عن رئة أيامهم غبار الحرب ودخانها الخانق حتى طاردتهم الإيديولوجيات والصراعات السياسية بكوابيس مقيتة لا تقل فداحة وخرابا ودمارا عن ويلات الحروب وشرورها. ظل قرابة تسعة وعشرين عاما وهو يمارس سلطته، حتى كاد أن يكون أعتى جدار فاصل في التاريخ لو لم يتفوق عليه جدار الفصل العنصري الذي شرع في إقامته الصهاينة في فلسطين المحتلة منذ سنة 2002. كثيرة هي الجرائم والأحداث التي رافقت السيرة الكريهة لجدار برلين منذ إنشائه في سنة 1961.. وقائع مهولة تسرد حكاية سكانه، كمواطنين معتقلين في وطنهم، خضعوا رغما عنهم لطغيان العزلة، وتغول الأيديولوجيا، وصار دأبهم الفرار إلى الشطر الخفي من الوطن الأم الذي قسّم بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، فكان عقاب القتل بإطلاق النار، خاتمة كل متسلل يجانبه الحظ ويفشل في تخطي الجدار، بينما الاعتقال والتعذيب والمحاكمة لمن يضبط متلبسا. سير محزنة ومخزية ومؤلمة تتحدث عن قطع صلة الرحم وتمزيق الأواصر، وتجزئة الكيان الواحد للبشر

والثقافة والجغرافيا حيث كان على السور أن يدمر كل شيء يقع في طريقه الملتوية الطويلة، ليقفل عشرات الشوارع ويسد طرق الإسفلت ومسارب قطار الأنفاق ويشطر الضواحي والأرياف والميادين والأحياء والحواري. مكابدات بالغة الألم عانى منها الإنسان والحيوان والمكان في ألمانيا جراء هذا لجدار العازل الذي امتدّ طوله قرابة 165 كيلو مترا، وبلغ علوّه أكثر من ثلاثة أمتار محصنة بأسلاك شائكة مكهربة، و عديد نقاط الحراسة وأبراج المراقبة ..ليتحوّل وطن بأسره إلى سجن كبير، أمسى المقام فيه كريهًا وقاسيًا، وطن طارد لا يفكر أبناؤه إلا في الفرار بعيدا عن معتقلاته وأسلاكه الشائكة، حالمين بالوصول إلى الجهة الآمنة التي بدت لهم أكثر طمأنينة وسلاما.

لم يبق اليوم أي أثر من جدار برلين سوى بضعة أحجار طريفة من طلل دارس كجزء من ذاكرة مريرة وقاتمة يدرك مواطنو الشطر الشرقي التابع إلى ألمانيا الديمقراطية سابقا مدى فداحة قسوتها وشراسة معاناتها التي خلقت تداعيات عنيفة من العزلة والقتل والمعتقلات والتعذيب والمحاكم الظالمة. انقضت سنوات طويلة على انهيار ذلك الغول الخرساني الذي تم هدمه في التاسع من شهر نوفمبر1989 . والمفارقة أن أطيافه تحولت إلى كائنات يحتفى بها، تجسدت بهيئة جداريات تشكيلية ولوحات وتكوينات زخرفية تناوب على التفنن في رسمها وتلوينها فنانون تشكيليون من شتى بقاع العالم، لتغدو من ثم معظم شظايا

أنقاضه ذات قيمة سياحية يتهافت الزوار على اقتنائها كتذكارات - يشك احيانا في انتسابها لسلالة الجدار المنهار - لكنها في نهاية المطاف عبارة عن رموز فنية تشي من جهة بفداحة القهر، ومن جهة أخرى بإرادة الإنسان الذي ولد ليكون حرًا.

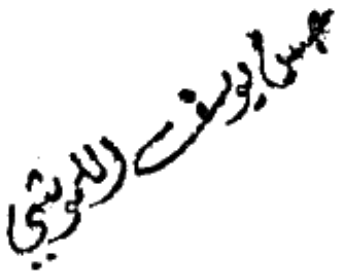

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة
مكتبتي الخاصة
على موقع ارشيف الانترنت
الرابط
https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

مديح

عوضا عن النظر إلى الجدران وحركة الضوء والغيوم عبر النافذة، والتي أحيانا تعيقني تقرّحات جسمي عن مغادرة السرير لأكتفي قانعا بما تتيحه المسافة من بعد أو دنوّ، إذ لا يفصل بيننا سوى منضدة ركنت بعناية لا تخلو من حكمة كونها في النهار جارة ضوء، وفي الليل حمّالة ظلّ، حيث ثمة كوب مقلوب على ظهرها وزجاجة ماء مغلقة، تنتظر عطشا يسكب رقراقها، عوضا عن ذلك اقترحت على نفسي أن أفكرّ برصانة لا تعوزها سماحة المؤمن، بأن المرض الذي قد تنزلق لغته إلى معجم مقت وأسى، هو في جوهره هبة جديرة بحمد الواهب، وليس نقمة كما يذهب بعض الظنّ، كائن ضروري يضاهي ما قد تهمله البداهة أو ما نسهو عن مديحه من ضرورات الطبيعة كالهواء والعشب والطين والماء والنار والملح والطحين، والشمس في إشراقها وأفولها . فما من شيء يمكن أن يكون بلا معنى. استدرجني هذا الخاطر الأصيل بهدوء لتقبّل الكثير من عثرات السفر حين ترتبك الإبر وتتعقد خيوط نسيج قماشة الحياة، وأن ما يعدّ بغيضا يمكن التغاضي عنه إذا ما أدركنا بأننا جميعا سنغادر بعد قليل لنهجر ثيابنا وأجسادنا ولغتنا وصورنا، وأنه ما من متحرك أو ساكن ليس محاطا بعناية الخالق، وبذا علينا أن نتفنّن بدورنا في تأمله

والتمعّن في هيئته وتكوينه وفهم نظامه، بما في ذلك العابر، أو المتطفل الذي قد يستفزنا ليمسي مبعث اهتياج وغضب وسخط وكراهية ومثار فرقة، وكل ما شابه من أسماء مقيتة تؤثث هشاشة الفتن، في وقت لا حاجة بنا للإيغال في ارتكاب هكذا حماقات يؤججها العمى لتصفية حسابات موهومة مع الحياة بمحرّضات غامضة، تتصالب بجريرة فشل أو خيبة أو نزعة شرّ ربّما في حينها لا ندركها ،كأن نسقط عداءنا على كل ما هو خارجنا ،ونتفنن من ثم وبقسوة جامحة في الانتقام عوضا عن استدراج التسامح والإحسان والمحبة واللين إلى قلوبنا، وتبديل الحياة من خزّان كراهية إلى أنهار من الود والألفة، فلا مبرر من وراء سعينا لإقصاء الآخرين لكي نستأثر وحدنا بحكايات الليل ومقتنيات النهار/ حماقات عابرة تأخذ أحيانا شكل جشع أعمى، يحركه طمع أرعن في ارث هزيل. لأننا أخيرا، سنغادر جميعا هذا الشرك .. وما من شيء سيبقى، بما في ذلك الكلمات التي نتوهّم خلودها. لهذا أعترف بأنني سأهمل العديد من العناوين التي يرتاب في مؤازرتها على تفهّم هبة الحياة وأبجدية المرض، ولا سيما تلك القواميس الخليقة بالترهات، والتي عليها أن تصمت، وأن يغرب مريدوها وغواتها بعيدا عن سمائنا، حتى لا تمسي هكذا كائنات مجلبة للتعب عوضا عن التمتع بسمو اللحظة حين نقبض على أبهى تجلياتها .. لهذا رأيت في مجانبة هكذا صداع دعما لوجستيا يؤثث قدرا من الهناءة، حيث لا ارتياب البتة طالما

في مكنتنا قفل الأبواب التي تجلب الريح الهوجاء. أنا أكتب الآن من بعيد ،معترفا بعجز حواسي عن التقاط أسئلة المعيشي أو السياسي، لأنه لا يتسنى لي ملامسة تلك المسمّيات التي أتألم خارج أسبابها. فمعذرة للقراء إذا ما تواطأت مع الوجع مشيرا إلى نصف جسدي العاطل، مكتفيا بالإصغاء إلى ما يتاح من نصف المعرفة، ببراءة المعاق الذي لا حرج عليه كلّما تداعى احتفاؤه بين حين وآخر في مديح الألم . فقط، كنت أحاول أن أزاوج بين الجسد واللغة، متأملا جعل الوجع جزءا حيا من الإيمان والبهاء والتوق والتقوى، رهنا بعشق الكتابة لا غير. وهو تواطؤ محمود فيما أرى، وليس بجديد حين نمعن النظر في وجدان اللغات الجميلة التي قدّت بهيئة فنون نسجتها أشكال بارعة من الشعر والسرد واللون .. حتى أساطير العالم القديم تركت حيزا لمديح الألم، فلا مغبّة إذن، ولا استياء ،إلاّ إذا نظرنا بعين مرتابة تحاول التشكيك في ما ينبغي أن يوجد. أكتب من داخل الألم، معوّلا أن يكون هذا الخاطر أشارة حكمة، لا شطحة لغو. فقط امتثلت لصياغة ما أملته عليّ اللحظة ..هذا كل شيء.

كنز العين

الصورةُ كنزُ العين، كلاهما صنّو الآخر:

الفريسةُ والأسيرُ والطريدُ والعاشقُ، لاسيما وأن العالمَ الآن قد أضحى بقضّه وقضيضه يخضعُ رغماً عنه لأنساق الصورةِ، كمنظومةٍ جديدةٍ لا تعتمد على دورِ النخبةِ في تأثيثِ قيمَها بعد أن وصلت من خلال سحر البصر إلى مَشاع، تَشي تمظهراتُه بترويج ثقافة مجتمعية تنحو لتبسيط رسالتها، بحيث لا يتعذّر فهمها طالما هي تتيحُ التنوّعَ والتعدّدَ وحريةَ التأويل. ومن ثَم انزاحت الصورة ُلتحتلّ بؤرةَ الإشعاع الثقافي كمصدر محوريّ لبثّ وتكريس نموذجَ ثقافتها السهلة والمحيّرة في آن واحد.

الصورةُ على الرغم من بساطة شكلها، تظلُّ في عمقها أكثر تعقيداً، بحيث كثرت حولها المفاهيمُ والنظرياتُ، وتشعبت التأويلاتُ والدلالاتُ التي أسهبَ في طرح أسئلتها عديدُ المفكرين والمثقفين، من تشومسكي، إلى ادوارد سعيد، مرورا ببودريار وريجيس دوبريه. عالمُ الصورةِ أو ثقافةُ الصورةِ - سواء شئنا أم أبينا - علينا كجزء من هذا العالم أن نخضعَ - وعن طيب خاطر - لما تُمليه سلطتُها من نمذجة لتنميط سلوكنا و(سَكْلَجَة) أذواقنا وخيارتنا، ومن ثم برمجتنا تبعاً لذاكرتها وأرقامها وحساسيتها، إلى الحدّ الذي لا خيار أمامنا، سوى الاحتكام إلى مرجعياتها واللجوء إلى قوانينها واستقاء معرفتنا وتوجيه حساسيتنا من خلالها.

يبدو أن التسليمَ بهيمنة الصورة، ضربٌ من الاعتراف بجوهرها

كأُسٍ معرفيٍّ يشكّلُ علامةً ثقافيةً تَسمُ ما وصلتْ إليه تكويناتُ العقلِ البشريّ في لحظتنا الراهنة، وأيضاً التسليم بظاهرها أو سطحها من جهة أخرى، بما يمثله من علامة تجارية ترمزُ إلى هيكلةِ سلطةِ السوق كأهمّ عنوان من عناوين سياسات العولمة، ومن ثم قد انعكس هذا المعيارُ بما يُضمره ويخفيه، على فرضية وجود سياقات جديدة في إنتاج المعرفة بشتى أجناسها وأنواعها، حيث لا فكاكَ من أن تندرجَ الفنونُ والآدابُ كشقّ من هذا المتن الواسع ضمن آليات وأنظمة ثقافة الصورة، وبخاصة تلك الأنواع الأدبية التي تمسّ الهويات، بحيث صارت هي الأخرى لا مفرّ من أن تحذو حذو هذا الزحف البصري الكاسح، وهي مسألةٌ طبيعيةٌ جداً إذا سلمنا نحن العرب الذين نحاذر من مغبّة الغزو الثقافي على هويتنا، بأن الأدبَ بصورة عامة، والشّعرَ بصورةٍ خاصةٍ من الأجناس الأكثر حساسية في استجابتها. فما من شيء سيكون خارج هذا التأثير. لكن يبدو أن شططَ الإزاحة باتجاه تكريس نموذج الصورة قد خلخل ما نعتقد رسوخه من جماليات في شعر العربية، الذي تنازل عن هبة الصوت إكراماً لشغف الصورة، ففقد الاثنين معًا. بحيث صرنا أمام أشلاء لكائنٍ مسخ لا صوت، ولا صورة له.

بيت من كلمات

أن تنفرد خلافا لتقاليد قومك وعادات رهطك بتحبير أسئلتك وتسطير مشاعرك على الورق بهيئة كلمات فاتنة تبحث عن جدواها في عبارات اجتهدت كثيرا بأن يتسع فضاؤها إيواء الرؤى وبلاغة البناء وإعجاز المعاني، فهذه سمة شائنة، ومثلبة مقيتة، وخطيئة لا تغتفر، وحالة من الهراء النافل التي لا طائل من ورائها سوى جلب المزيد من المتاعب والمنغّصات.. في بيئة قاحلة لا تعترف بوسيلة أخرى غير الشفاه ،لصياغة مشاعرها وبث لواعجها؛ وبذا سيعدّ نشاطك خروجا عن قاعدة الصوت ونمط الكلام، وفعلا شاذّا لن يسلم من مغبّة الأذى والسخرية ،والتسفيه والإقصاء؛ فمن أنت أيها المخلوق النكرة الذي نشأت في المفازة ذاتها، وترعرعت بين خيامها وأطلالها وخرائبها وأكلت من بقلها وقثائها، وشربت من النبع ذاته الذي شرب منه السابلة والطير والدواب؟ حتى تعطي لنفسك هذه الهبة النادرة وتتميّز بمخيلة تستعيض عن الشفاه بدواة الحبر؛ ثم تفكّر بطريقة أخرى خارج الصوت ونبر الكلام المنطوق الذي تعوّده أبناء قومك وأفراد عشيرتك.

من أنت حتى تقترح من الكتابة متنا بديلا في مجتمع لا يقرأ؛

ولن يجد أيّة غضاضة في أن يحكم عليك بالنفي المؤبّد؟ لتلفي نفسك رغما عنك منبوذا ونائيا تتكلّم فقط مع ذاتك في حوار داخلي من طرف واحد، سيفضي بك في نهاية المطاف إلى حالة من الجنون المستعصي الذي لا براء منه. ولأن من يحاور نفسه طويلا سيعدّه الآخرون كائنا مخبولا لن تجديه أطنان من الورق المسوّد لتأكيد براءة حلمه ونزاهة مقصده طالما لا أحد يمكنه أن يتوقّف قليلا إزاء عتبة الحبر ليكشف ما تخبئه الكتابة بين أعطافها..فقط : لأن آلة الغابة هي أكثر تعقيدا من أن تعترف بلغة أخرى غير العواء. وهي أيضا أشدّ صلابة من أن تتصالح مع كائن حالم، سيظل حسب وجهة نظرها لا همّ له سوى تكديس المزيد من الأوراق الغشيمة التي لا تصلح سوى أن تكون في حدها الأدنى مجرد علف للدواب. فتريث أيّها العابر بقامة البرق حتى لا تخسر الحكاية الهاطلة بإشارة الغيم؛ فلا أحد يعبأ بك أو قد يبصر ما تتكبّده الحروف من مشقّة السفر لكي تبني بيتا آمنا من بضع كلمات نشيطة.

ضحك

هل يمكن أن يكون الضحك مضادا حيويا و سلاحا مجديا، في معركة مباغتة، يقود هجومها الشرس ضد قلاعك الغافلة عدو خبيث، على درجة عالية من المكر والحنكة والدهاء، وقد شن عليك حربا عشواء لا هوادة فيها؟ هل يمكن أيضا أن يكون الشعر أداة صالحة للمقاومة والدفاع، بعد أن أمست قواتك التي تعول عليها في معركتك الدفاعية محض أشلاء ممزقة يتعذر جمع شتات كتائبها التي تصرمت فصائلها بين جهات التيه بلا عدّة أو عتاد. وهل من الحكمة في شيء إزاء هكذا معركة تفتقر إلى الحد الأدنى من نزاهة القتال أن تستسلم صاغرا وضعيفا وذليلا، متشبثا فقط بلغة البكاء والشكاة، معلنا عن هوانك وبؤسك وقلة حيلتك، متخاذلا بخيبة ويأس وإحباط في معركة مصيرك، حيث لا مطاف إذا ما تواطأت مع خوفك سوى الموت، متخليا بمشيئة العاجز عن إيمانك الراسخ بحياتك الجميلة التي طالما هتفت بصوت لامع لا تعوزه ثقة التفاؤل بأنها هبة الله، و ينبغي أن تعاش. فهل يليق بك الآن وأنت العاشق الذي طالما كرس قصائده لمديح المتع، أن تتقهقر في أولى معارك حربك الطويلة. هل يمكن أن تتوقف المواجهة عند هذا الحدّ المخزي، والموقف المهين إزاء عدو استيطاني يستعمر جهات جسدك ويحتل أعزّ ما تملك من ثروات سامية لا يعوزها بهاء الوجد والبهجة والسفر والتحقق.

هل يمكن أن تنتهي أولى معاركك عند هذا الحد. أليس من الحكمة الآن أن تستنفر كل ما تذخر من تجارب وخبرات. لكي تواجه عدوك ببسالة العاشق الذي سيفترض دعما لوجستيا قادرًا على المزيد من الصمود والمواجهة. قادرا على إطالة عمر المعركة ومعرفة نقاط ضعف الخصم. حيث سيعد الضحك أمام ضراوة الألم أخطر سلاح يمكن استخدامه لفتح ثغرة بين صفوف القوات الغازية. الضحك مع قليل من الشعر والموسيقى، وتكريس كل ما يقدمه أعوانك الخلص من أسلحة السخرية والتهكم من هكذا عدو شرس تكمن أولى نقاط ضعفه في عدم قدرته على تحمل المزيد من الشعر والفرح والموسيقى. صحيح، قد يعد من السهل التحدث عن الألم، لكن أن يعاش، ويتخلل مسامك، فاتكا بخلاياك في كل جزء من الثانية، هذا يعني انك إزاء حرب حقيقية تترجم خرابها خارج الكلام. لهذا كان لا بد من ابتكار أسلحة أكثر خطورة وفتكا من أسلحة الدمار الشامل. فقط أن تستنفر كل كائناتك القادرة على صناعة الضحك، مدعوما بمنجنيقات الشعر، وقنابل الموسيقى. أن ترفع رايات الحب خفاقة في سماء الوجد، حيث يكفي بضع كلمات تبثها رسالة عاشقة أن تضخ فيك المزيد من الأكسجين والطاقة الخارقة على دحر جميع الأورام الخبيثة.

أن تكون ذئبا

في طفولتي سمعت الكثير من الحكايات المخيفة عن شراسة الذئب الذي لم أره وقتذاك، لكن وعلى نحو ما قد رسمت له في مخيلتي صورة بشعة تنسجم مع وحشية تلك الحكايات المقيتة التي كان يرويها الكبار في الليالي المقمرة . وظلت تلك الملامح المرعبة تكبر معي حتى تسنى لي في صحراء تشاد أن أقتل أول ذئب صادفني . لم تكن هيئته تشبه الصورة تلك في شيء . غير أنني ما كدت انتبه إلى صوت رفيقي في العربة الصحراوية، وهو يصيح عاليا (ذيب، ذيب) مشيرا بسبابته إلى مخلوق كلبي يقف وحيدا بمحاذاة طلحة بعيدة. كنت وقتها قد تجاوزت العشرين من عمري. وكان بحوزتي بندقية كلاشنكوف وثلاثة مخازن ملأى بالذخيرة. على عجل صوبت بدقة وضغطت على الزناد لتنطلق صلية الرصاص . ولم أتألم قط مثلما تألمت في تلك اللحظة؛ لأن الذئب المدروز بالرصاص لم يسقط كما كنت أتوقع؛ بل أخذ يدور حول نفسه ناهشا بأنيابه أحشاء أمعائه المبقورة بضراوة وعنف، ويطلق عواء مخيفا، ترددت أصداءه في الأرجاء . اقتربنا بمحاذاته، من دون أن نغادر سيارتنا الصحراوية. ولم تمض بضع دقائق حتى خرّ على الأرض بعد أن فقد قوته، لافظا أنفاسه الأخيرة، مستسلما بهدوء لمشيئة مطافه الدامي، حيث كان من

المقدر لي أن أكون قاتله دونما هوادة. غير أنني بعد هذه الحادثة قد أدركت حقيقة غامضة، بصدد الذئب الذي تكرست مفردته كلازمة رئيسة في أشعاري وكتاباتي النثرية. وقد اكتنفني الندم حيال تلك الواقعة البغيضة، لاسيما وأن الذئب لم يعتد علي ولأمر ما تراءى لي بان وقائع الحياة تحتمل قلب الأدوار، وتتقبل مجازا بأن يكون البشر ذئبا مفترسا؛ فلا غرابة إذا ما تقمص الكائن الآدمي ملامح ذئب، وأن تتحول المدن إلى غابات مخيفة. ولعل تلك العبارة الحكمية التي ذهبت مثلا، تجسد حقيقة: إن لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب. والمغزى هنا يشير تحديدا إلى أوطان بأسرها قد ذهبت فريسة سهلة، تمزقها براثن الذئاب على مرأى من عيون العالم.

رسالة من كركوك

لماذا بغداد واجمة هذا الصباح؟

تنزع ثوب النور في غرف الضباب،

وتلبسه هذا الغريب

تتسلل من جسرها حياء،

لتترك الشهداء خائفين.

هذا المقطع من قصيدة طويلة للشاعر العراقي الشاب (رعد مطشر)، وصلت إلى بريدنا في اليوم السادس، من غزو العراق ضمن مجموعة شعرية طازجة استلمناها في لحظة شديدة الارتباك، يتعذر علينا توصيف عنفها وتمزقاتها النفسية، عندما لم نجد بدا من التسمّر أمام شاشة التلفاز لمتابعة مجريات الحرب الوحشية، وقد بلغت حدّا مرعبا في هتك الأعراف والشرائع الدولية. من كركوك تحديدا فاجأتنا قصائدُ صديقنا الشاعر العراقي الذي لم نره منذ الدورة العاشرة لمهرجان المربد . كان وقتها فتيا في أوج لمعانه وتمرده كشاعر شاب يَصُكُ مفردات قصيدته بمطارق من لهب، ويستنفر دلالاتها بطاقة شعرية متوهجة .. تنبئ بمولد شاعر أصيل من سلالة السياب ومحمود البريكان وحسب الشيخ جعفر .. وهذا ليس بغريب على أهل العراق الذين يعد الشعر بالنسبة

لهم رئة ضرورية للحلم والحياة . لأن الشعر صنو العراق الذي أينما يذهب، تتقدمه قوافي التوق؛ فمن ألواح جلجامش إلى مرايا عدنان الصايغ .. مرورا بابي نواس والمتنبي والجواهري والسياب والبياتي، ظل العراق ينمو بصلابة سبعة آلاف عام من الشعر والحكمة، ساهمت في صنع أعظم الحضارات الإنسانية وأكثرها مجدا وعتاقة، ومهما تعاقب الغزاة .. حتما سيُبعث العراق، وحتما سيظلّ الشعر يهتفُ واثقا من بلاغة حلمه وقوة عزيمته.

يقول « رعد مطشر »

كل الطائرات

توقدُ أشباحها

وتطيرُ تجاهك

وأنت .....

قاصفوا بياضك لم يلمحوا

تسلل الأنامل

من سواد القصف

لم يسمعوا بمراع

تبسمل بالينابيع

أو بشهادة تربت

على كف العصافير

وتسبح بجلال الضحكة الطائرة

فيفرون

مسترسلين

في العواء

بعيدا عن هذي البلاد .

فرمان « حريات مقيّدة »

قديما؛ أي قبل أربعة آلاف عام دوّن البابليون والآشوريون قوانينهم، ووقائع زمنهم، وأخبار حروبهم، وبطولات ملوكهم وفرسانهم باستخدام الحجارة والطين. تلك المدونات كانت بمثابة إرهاصات أولى مهدت لاكتشاف الصحافة. فيما بعد، وخلال سنة 1750 ق م استخدم الفراعنة ورق البردي في تحرير صحيفتهم الرسمية والتي كانت تسمى: صحيفة البلاط. ثم توالت الفتوحات تباعا، من الصين إلى روما، حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي، حين توصلت أوربا لصناعة الصحافة الورقية بشكلها الحديث.

كان على العرب انتظار دخول المطبعة إلى أهم عواصمهم الثقافة، لكي تصدر « الوقائع المصرية »، في القاهرة سنة 1828، كأول جريدة مصرية. وقد وصلت منها بضع نسخ في سنتها التالية إلى ولاية طرابلس الغرب، مرسلة بشكل شخصي إلى أحد أعيانها. في ذلك الوقت كان الطرابلسيون يطلقون على صاحبة الجلالة اسم: كازيطه. فوقتذاك لم يكن مصطلح (الجريدة) قيد التداول. واستئناسا برأي الباحث المدقق: عمار جحيدر، فأن تثبيت مفردة الجريدة، كمصطلح لغوي جاء بفضل: أحمد فارس الشدياق، الذي أطلقه على العدد الأول من صحيفة

الجوانب، التي ترأس تحريرها باسطانبول سنة1861 .

في ليبيا عرفت ولاية طرابلس الصحافة كصناعة محلية خلال العهد العثماني الثاني، وفقا لقانون (حريات مقيدة) كأول فرمان للسلطنة العثمانية ينظم الصحافة، أصدره السلطان عبد العزيز سنة 1865 . وهكذا ولدت الصحافة الليبية بلسان تركي عربي، عبر أول صحيفة رسمية، صدرت تحت اسم (طرابلس الغرب) في العشرين من شهر سبتمبر 1866 . لتأتي ليبيا في الترتيب السادس عربيا، بعد مصر والجزائر ولبنان وتونس وسوريا . ومن البديهي أن يرتبط تطور ونمو هذه الصناعة محلّياً بدخول المطبعة الحديثة عوضا عن الحجرية لتتوالى عناوين الصحف والمجلات، بين رسمية تصدرها سلطاتُ الدولة، وأخرى خاصة، يصدرها أشخاص أحبوا هذه المهنة وأخلصوا لها، ولاسيما في فترة أواخر العهد العثماني الثاني، والتي شهدت زخما استثنائيا من حيث عدد الصحف في فترة قصيرة جدا لا تتجاوز ثلاث سنوات، استئناسا بالدستور التركي الجديد (1908)، والذي فتح هامشا للحريات. حيث شرعت العاصمة طرابلس تؤثث مشهدها الثقافي كمدينة عريقة، وعاصمة لها ما لها من عتاقة التاريخ، ولعلها الآن تُعَد ثاني أقدم عاصمة تاريخية لا تزال مأهولة بالسكان بعد دمشق. ولا شك أن حراك الصحافة قد أسهم في أحداث متغيرات اجتماعية وثقافية، كان لها تأثيرها في عملية إيقاظ الوعي وتحريك الحس الوطني.

فمقاهي المدينة وأنديتها وصفوةُ مثقفيها، فضلا عن تجمعات الأدباء والكتاب، بدت أكثر انتعاشا واستجابة لفعل الكلمة. لكن أنفاس صاحبة الجلالة ما تلبث أن تكتم تماما في عهد الاحتلال الايطالي، جراء الممارسات القمعية.

خلال فترة الإدارة البريطانية على إقليمي برقة وطرابلس ستستعيد الصحافة الليبية شيئا من هامشها وتعود للصدور، وإن ظل الحيز المتاح لحرية الرأي بين مدّ وجزر، مشروطا في الغالب بثوابت سنّتها قوانين الإدارة. هذا الهامش سيشهد حركة أكثر انتعاشا بعد الاستقلال، وبالمثل سينعكس على انتظام صدور الصحف وتنوعها. لكن بعد انقلاب سبتمبر سيهيمن مرة أخرى فرمان (حريات مقيدة) بطريقة أشد وطأة وأكثر دهاء وبشاعة، عبر ممارسات تضييق الرقابة وإقفال الصحف الخاصة وتحجير الرأي.

بعد ثورة السابع عشر من فبراير، استبشرنا خيرا خلال السنوات الثلاث الأولى، لكن يبدو أن لعنة فرمان (حريات مقيدة) ما تزال متربصة بالحياة الصحفية في ليبيا. ويكفي الإشارة هنا إلى حملة استهداف الصحفيين والنشطاء الوطنيين، والتي وصلت إلى حدّ الاغتيال والخطف والاعتقال والتعذيب. مما أدى إلى نزوح وهجرة أغلب النخب المثقفة من صحفيين وإعلاميين وأدباء وكتاب إلى خارج البلاد . وتلك حكاية أخرى.

لست هنا في مجال التأريخ لصحافة ليبيا ومسيرتها التي تربو على قرن ونصف القرن. لكنني فقط أردت من جهة الاحتفاء بهذه الذكرى، ومن جهة أخرى التذكير بأن مهنة الصحافة ينبغي أن يردّ إليها اعتباراها، ليس من مؤسسات الدولة وحسب، بل من العاملين بهذا الحقل، ولاسيما الكتّاب الذين أمسوا ينحرفون بعيدا عن ميثاق شرف الكلمة. فلكي تتوحد ليبيا، وتحقق أمنها واستقرارها، تقع مسؤولية جسيمة على عاتق أهل المهنة، بأن ينأوا عن ألاعيب التضليل، وأية شيطنة من شأنها ضخ الفتن، ونعرات الاصطفاف القبلي والمناطقي والأيديولوجي. عليهم فقط أن يصطفوا مع وحدة ليبيا، وأن يضعوها نصب أعينهم، ثم ضميرهم.

حروب كراسة الرسم

انسحبت الفراشاتُ، واختفت الحديقةُ من كراسة الرسم، ولم يبق أي أثر لعصفور فوق غصن. فقدت الحقولُ بهجة شمسها، وشجيراتها النضرة، بعد رحيل الحيوانات الصديقة والأليفة. أجل، خلت الأوراقُ تماماً من الأرنوب المجتهد، والدببوب المرح، والحمار الطيب، والببغاء الفنان. غادروا جميعهم حلبة الرسم، وتخلوا عن تلك الرفقة البهية في اللعب. خسروا مشيئة الألوان الآمنة وتضافرها، لكي تشكل عالماً رحيما، متسامحا وجميلا وحالما، من قوس قزح وهو يسبح في سماء الورقة بنعومة ندية، وشمس ربيع حنونٌ لاشكّ، وأزهارٌ استعارت ألوانها من جمال نقيّ وصادق. فجأة انسحب البهاء منكسرًا وخائبا، ليترك الفضاء للبشاعة وحدها، للطائرات المقاتلة والصواريخ، للدبابات وعربات الميم طاء، للخراب ودخان الحرائق. لحملة الكلاشنكوف وهم يجوبون الشوارع بمشية استعراضية شاهرين أسلحتهم التي تطلق النيران. حيث لاشيء يصمد، سوى الخراب وحده. كل شيء تغير فجأة، هكذا هم أطفال الحروب.

فقط هذه مجرد جزئية صغيرة. صورة منتزعة من سيرة براءة الألوان، تحاول من جهتها تقديم ولو لقطة عابرة من مشهد الحرب الليبية الدائرة منذ خمس سنوات؛ حين بدأت الحربُ

تقترب أكثر فأكثر، من البيوت والشوارع والمدارس والحدائق؛ ولاسيما في أثناء القصف الجوي الذي قامت به طائرات وبوارج الناتو على المدن والبلدات.

العاصمة طرابلس بصورة خاصة كان لها نصيبها الوافر من القصف الجوي والبحري، عندما تدفقت الصواريخ والقنابل لتدك أهدافا عسكرية وأمنية داخل الأحياء السكنية. فضلا عن اشتباكات ومعارك طاحنة دارت بالأسلحة الثقيلة في شوارع المدينة وأحيائها المكتظة بالسكّان.

في الآن نفسه انتقلت الحرب إلى وسائط الإعلام، والتي لم تكن بمعزل عن حواس الطفل ومشاعره، ولاسيما برامج التلفاز الإخبارية والتي تتناول بالخبر والصورة ويلات ومجازر الحرب الليبية، بكل بشاعتها الوحشية، من قطع رؤوس إلى بتر أطراف إلى مشاهد دامية تقشعر لها الأبدان.

السؤال المحير: ماذا فعلت الدولة الليبية بكل هياكلها وهيئاتها ومؤسساتها ذات الشأن، من وزارات تعليم وصحة وشؤون اجتماعية، وثقافة وإعلام، وأوقاف. وبأي سياسات ومخططات وبرامج تصدّت لمعالجة مشكلة ضحايا الحرب، من هذه الفئة العمرية القاصرة عن استيعاب ما يحدث حولها من خراب مفتوح، وفوضى جامحة خلخلت كل شيء في الحياة. للأسف ظلت الدولة بكافة هياكلها ومؤسساتها، بحكم تصاعد وتيرة

الاقتتال، فضلا عن الصراعات السياسية، عاجزة تماما عن فعل أي شيء مجد وحقيقي، وبالمثل تكاد مؤسسات المجتمع المدني هي الأخرى مرتبكة وهشة، وقاصرة عن تفعيل دورها - ولو نسبيا - لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.

قبل قليل، قال صديقي الطرابلسيّ: كان طفلنا الذي لم يجتز الخامسة من عمره، كان سليما وفرحا وناعما، وهو يبتكر كائنات أكثر مرحا لرسومه وألعابه، ويملأ أركان البيت حيوية ونشاطا. لكن ما أن بدأت آلة الحرب تقترب من بيتنا حتى تغيّر كل شيء، تغيّر إلى ما هو أمرّ وأسوأ. بدءاً من الأيام الأولى لانتفاضة فبراير كنّا نسمع أصداء الرصاص والقذائف. أي منذ أن احتشد جمع من الحقوقيين أمام مبني المحكمة، بشارع السّيّدي، والذين تمّ تفريقهم من طرف فرق الأمن بواسطة النيران وقنابل الدخان. بعض المتظاهرين لاذوا بمدخل العمارة نفسها التي نقطنها. لكن مشكلتنا تفاقمت تحديدا في اللحظة التي قصفت خلالها طائرات حلف الناتو وبوارجه الراسية في حوض المتوسط مبنى الاستخبارات العسكرية، والذي لا يبعد عن بيتنا سوى بضع مئات من الأمتار. انفتحت النوافذ بتأثير هزة قوية وانفجار مروع، واقتحمت سحبٌ كثيفة من الغبار والدخان مشبعة برائحة بارود وكلس. هرعتُ مسرعا نحو طفلي والذي لم يبلغ الخامسة من عمره بعد . كان يصرخ وينتفض. وحين حملته، ظل منكمشا على نفسه بصلابة. وقد اتخذ وضع الجنين في الرحم. مرت

تلك الليلة بصخبها ورعبها. لكن لم يمر الأمر على طفلنا بسلام.

ظل الصغير ولسنتين متتاليتين لا ينام الليل. بل يجلس في سريره متربصا ضوء الصباح، ولا يخلد للنوم حتى يطمئن تماما لشروق الشمس. حيث تغير سلوكه على نحو مخيف، وصار يخشى أي صوت ارتطام مباغت وعنيف، بما في ذلك صوت طرق الباب أو إقفاله بقوة. وتدريجيا لاحظنا بأنه قد أضحى عدوانيا، وعصبيا، وأن ألعابه بدأت تتغير هي الأخرى، لتتخذ أشكالا غريبة، أكثر ميلا واستهواءً للعنف، وبالمثل انسحب الأمر على العاب الفيديو(البلايستيشن). كذلك صار يتشبث بمشاهدة أفلام الرعب، ويتحايل أثناء سهونا على استخدام ريموت التلفاز، لعله يعثر على ما يلبّي حاجته لمشاهد الصور الأكثر ترويعا. بالمثل تغيرت كراسة رسمه، لتخضع لمحاكاة صور القتال، وقد امتلأت صفحاتها بهيئة طائرات تطلق القذائف، وأشكال تشيرُ إلى مسلحين ودبابات، ونيران تتصاعد ألسنتها من حطام بنايات مدمّرة. لهذا أوليناه المزيد من العناية والاهتمام، مع الإصغاء لشكاته، وحكاياته أيا كانت. ناهيك عن برامج للترويح من خلال النزهات وغيرها، مع إضافة قدر من الموسيقى في البيت، وتوفير مطبوعات تتماشى مع سنّه: مجلات وقصص، وتحفيزه على القراءة عبر مكافأته نظير كل قصة يقرأها، أو يعيد كتابتها. وفي نفس الوقت كنا نتحايل على تبديل مقتنيات اللعب إلى ما هو أقلّ أذى وأكثر انسجاما وتحفيزا لخيال مسالم. إضافة إلى

تغيير طلاء غرفة نومه، وتجديد أثاثها، وتزيين جدرانها بلوحات تحيل إلى حديقة أو حيوان أليف.

صحيح لم تكن المسألة هينة. لكنها أخيرا مرت بسلام نسبي. إذْ خفّت قليلاً ردودُ فعله العدوانية مع مرور الوقت، غير أن تلك النوبات من التوتر والانفعال مازالت تنتابه، وان على فترات متباعدة وبشكل أقل حدة وعنفا عن ذي قبل.

لكن الآن؛ وبعد مضي خمس سنوات تقريبا، شكلت ملامحها الدميمة معاركٌ واشتباكات مسلحة، ما تلبث حتى تعلن عن نفسها بضراوة. يظل السؤال الأكثر حيرة وقلقا: هل ما زال في الإمكان، بالنسبة لأطفال ليبيا وغيرهم من أطفال البلدان العربية المنكوبة بويلات الحروب وجرائمها، أن يستعيدوا تلك البراءة التي تليق بجمال كراسة الرسم، لكي تسترد مخلوقاتها الجميلة التي شوهتها الحرب.

فرانكشتاين الربيع الليبي

لأن الحرب الدائرة هنا - أعني في ليبيا - مازالت تفرض جنونا يتعاظم، ظلّ ينتشر بقوة إلى الحد الذي بات فيه من المتعذّر التكهّن؛ متى ستنتهي الحرب، وما ستضيفه من كوارث، سوف لن تقتصر على القتل وتخريب العمران وخلق الأزمات المعيشية، بل ستعمل على المزيد من الهدم للنفس البشرية من الداخل، لتخلّف اضطرابات سلوكية وتشوهات أخلاقية تصعب معالجتها في زمن قصير. ولاسيما حين يتعلق الأمر بالأطفال كضحايا.

كيف سنقرأ هذا الصنف من العنف المركّب، حين يكون الأطفال هدفا مبرمجا يدخل ضمن أجندات تحويلهم إلى مستوعب متفجرات وأحزمة ناسفة. حين ينقلب البشر أنفسهم على آدميتهم ويخونون قيمهم، ليمسوا مشتلا خصبا للشذوذ والتطرف ومن ثم التغول، الذي يستمدّ قوته من استخدام مقولات ظلامية أجثثت من ماض سحيق، فضلا عن امتلاك السلاح والاستحواذ على السلطة ومقدرات الناس، والتدخل في عباداتهم وتعليمهم، وممارسة الوصاية على سلوكهم وعاداتهم الاجتماعية. وهكذا ستتفشى ظواهر العنف تبعا للغلبة، وردات الفعل من العنف المضاد للمغلوبين. متوالية تتفاقم وتيرة جنونها

في كرّ وفر، وغالب ومغلوب.

في هكذا معقل للتوحش، ستظلّ الطفولة وحدها كفئة هشة، الأكثر عرضة لمثالب العنف ولاسيما على المستوى النفسي والتربوي.عندها لا مناص من الاعتراف بمقولة المفكر هوبز « **الإنسان ذئب لأخيه الإنسان** « . وهذا ما حدث ويحدث في ليبيا، وبصفتي كمواطن ليبي، لشد ما تؤلمني مشاهد التفسخ، تلك التي تجبر جزءا من أطفالنا، أن يتخلوا عن طفولتهم، ليتحولوا إلى كائنات مخيفة بهيئة فرانكشتاين بريء، يتجول وسط مخلّفات ربيع خائب.

في رواية (الدفتر الكبير) للكاتبة الفرنسية من - أصل مجري - : أغوتا كريستوف، يتحول الأطفال تحت ضغوط الحرب إلى قتلة. حيث لن يتورع طفلان توأم، لم يبلغا سن المراهقة بعد، عن ارتكاب أبشع الجرائم، ليمسيا محض وحشين صغيرين. لأن أول شيء يمكن للحرب أن تفعله، هو انتهاكها للبراءة، لحظة أن تعيد تدوير العنف كنوع من أنواع اللعب. فبعد سلسلة من الوقائع المروّعة. في النهاية سيقتل الطفلان والدهما، ليتخذ أحدهما من جسد الأب الميت، جسر عبور يتقي من خلاله الأسلاك الشائكة المكهربة، حتى يفلت بجلده وهو يتسلق هاربا إلى الضفة الأخرى، كمنطقة حدودية آمنة. داخل هذه الفنتازيا الكابوسية، التي صاغتها مخيلة الكاتبة أغوتا كريستوف، تتجسد ويلات الحرب بصورة أكثر عنفا وقسوة ووحشية، عندما يقترح السرد ترجمة

فظاعة الحرب وفوضاها مجسدة في تحويل البراءة نفسها، إلى وحش كاسر، من ضحية إلى جاني. حيث تمتسخ الطفولة إلى أداة جريمة، وآلة مروعة من آلات العنف. والتي لم تكن في البدء غير فسحة لممارسة اللعب، لعب بريء يتخلق كمحاكاة لمشاهد العنف.

أنه لشيء أكبر من أن يحتمله ضمير الإنسانية. ولكن هذه الوقائع المريعة والصادمة كانت وما تزال، تمثل مشهدا طبيعيا هنا (أعني في ليبيا)، ضمن الظواهر التي تسفر عنها منتجات الاقتتال، وهستيريا الفوضى. لاسيما وأن المسلحين قد شكلوا ملمحا يوميا، غزا مراكز معظم مدننا الكبيرة، ومفاصل أحيائها وضواحيها. ساعتها، وبقدر ما انتشرت الألعاب الصينية التي تحاكي مستعملات الحروب من بنادق ومسدسات وسكاكين وسيوف بلاستيكية، ومفرقعات نارية، بوفرة غريبة اجتاحت الأسواق، لكن الأطفال لم يكتفوا بذلك وحسب، بل استجابوا لابتكارات مخيلتهم، في صناعة ألعابهم من مخلفات الاشتباكات في الشوارع، كالظرف الفارغ، أو معالجة تلك الأدوات التي يمكن إعادة تصميمها بعد نزعها من عربات عسكرية مدمرة ومحترقة، تركت لأيام في الساحات والأماكن العامة.

الآن، وبعد انقضاء قرابة خمس سنوات من عمر الفوضى، والحرب المفتوحة. أين يقف أطفال ليبيا الذين كبروا وتربّوا داخل هذا الأتون. فلا ريب أن تأثير مشاهد العنف كان ضاريا

عليهم، و فادحا إلى أبعد حدّ. ولعلّهم بقدر ما كانوا ضحايا لا ذنب لهم سوى وجودهم في بيئة تواطأ حملةُ السلاح فيها مع غواية العنف، إلاّ أن الأمر الصادم، والأكثر فاجعة أن بعضهم أي (الأطفال) قد تحولوا خلال هذا الحيز المخيف من زمن الحرب إلى مجرمين، من فئة اللصوص والقتلة وتجار المخدرات، وأيضا إلى أدوات عنف من صنف شاذ، بعد أن نجحت آلة التطرف في استدراج بعضهم إلى صفوفها، واستخدامهم كعبوات ناسفة، وأجسام مفخخة، حيث لا يقتضي الأمر سوى العمل على تجفيف عقول الناشئة من الصبيان الذين لم يجتز معظمهم سن الخامسة عشرة، واصطيادهم من أروقة المساجد والزوايا وخلوات تحفيظ القرآن.

وهكذا نخلص إلى أن تداعيات العنف في المشهد الليبي، تجاوزت في خريف 2016، كل ما يمكن للعقل تصديقه. لأن مظاهر الظلم، وانتهاك حقوق الطفل قد تعددت وتنوعت، لتدخل في متاهات غامضة لا حصر لها. ففضلا عن تيتم العديد من الأطفال الذين فقدوا إباءهم وأمهاتهم، عن الذين تشردوا وأمسوا بلا مأوى كنازحين داخل وطنهم، عن حرمان أبناء النازحين وغير النازحين من حقوق التعليم بعد أن تحولت المدارس في بعض المناطق إلى مخيمات إيواء، وثكنات للمسلحين، عن فقدانهم للرعاية الصحية والترفيه. عن شلل الدولة وعجزها التام لإيجاد أية برامج أو مقترحات تستهدف معالجة مشاكلهم، وتأمين

الحدّ الأدنى من حقوقهم. فوق هذا كله يتعرض الأطفال في مناطق الغرب الليبي ومنذ ثلاث سنوات إلى عمليات الخطف، كرهائن، تقوم بها عصابات مجرمة تساوم أهاليهم لدفع مبالغ طائلة كفدية. وحين يعجز ذووهم عن الدفع يتم قتلهم ورميهم في الخلاء ومكبات القمامة.

عبر هذه الوقائع وغيرها، وصلت بشاعة الجرائم التي ترتكب في حق الطفل الليبي حدا لا يطاق، وأنه لا الدولة، ولا المجتمع بكل فئاته وتنظيماته الأهلية، كان في مقدورهم إنقاذ أطفالهم من أتون هذه الفوضى.

وبالنظر لهذا الغبن، لجأ أطفال ليبيا أنفسهم في نهاية المطاف، إلى تشكيل برلمانهم الخاص بهم، فقط كرسالة أرادوا من خلالها الإشارة إلى تقاعس الكبار وعجزهم.

أصدقاء دار الفقيه حسن

في الوقت الذي تتعرض فيه ليبيا لغزوات التوحش وتداعيات الفوضى، يظل السؤال ملحا عن دور الثقافة، والأدب تحديدا، في مواجهة هذا الخراب. سؤال افتراضي، يطمح لإقحام الثقافة، والإبداع الأدبي والفني بصورة خاصة كشريك في المعركة، ورافد أكثر إستراتيجية وجدوى لكي ننتصر لصالح الإنسان فينا.

بالطبع قد تعترض السؤال عديد المثبطات، أقلها سيضمر شيئا من الريبة، بل والاستهجان الذي يذهب إلى حد السخرية والتهكّم، سيما وأن انشغال السكّان سيكون في الغالب منحصرا في البحث عن الأمن، والركض خلف متطلبات العيش، كأولويات أساسية، لتغدو مطاردة رغيف الخبز أكثر ضرورة، من الإصغاء لمقطوعة موسيقية أو قصيدة شعر. وأن ما من وقت يمكن استقطاعه إكراما لرؤى الفن.

إزاء هكذا جماهير فقدت ثقتها بقادتها ونخبها ومثقفيها وبنفسها أيضا، سوف يتعذر الرهان، ما ذا كان في وسعها الترحيب بمن سيروي لها قصصا، أو يحدثها عن فنون العمارة، طالما كل شيء من حولها يتهدم ليغدو خرابا، وأن أكثر من وحش متربّص، قد ينقض في أي لحظة على ما تبقى من أحلام بائسة.

فداخل هذا التيه المركّب من اللهاث المعيشي ليس من المستغرب أن يظلَّ قلق المواطن مستنفرا تبعا لأعراض الأزمة بكل تقلباتها، من انقطاع التيار الكهربائي إلى شحّ المياه، مرورا باستشراء ظاهرة الجريمة بشتى أصنافها.

في هكذا حياة صارت تُعذّب دونما هوادة، وعلى الرغم كل السلبيات التي تحاول ازدراء الجمال، لم يغفل مثقفو الحواضر، أن الوطن في جوهره إنسان يحلم، فكان لابد لهم من المساهمة في تفعيل ضرورة الثقافة لمقاومة بشاعة الواقع.

مع مطلع شهر مارس 2015 كانت العاصمة طرابلس على موعد استثنائي لانتشال وجدانها من أتُون الجحيم، لحظة أن تضامن مجموعة من الكتاب أطلقوا على أنفسهم (أصدقاء دار الفقيه حسن)، ليقترحوا على مدينتهم من ثم، كسر فداحة الخوف، كصنف من المقاومة الناعمة لضراوة الاختزال المخيف الذي تفرضه وحشية الفوضى، حتى لا يظل الإبداع في طرابلس محض هامش فائض عن الحاجة، وبهاء محقّر، وأيضا خشية أن لا يبقى أيما أثر للموسيقى داخل إيقاع القذائف، وضجيج الموت. لهذا انقض أصدقاء الفقيه حسن على الحياة بقوة، قبل أن تفلت.

ثمة حمولة من الذكريات التاريخية الأثيرة تنطوي عليها عتاقة جدران هذه الدار، ووقائع لا تمحى من سجلات طرابلس

القديمة. فهي تقع بحي باب البحر، كأشهر الأحياء التاريخية في المدينة القديمة، وتحديدا بزنقة الفرنسيس، التي تتميز بأقواسها، وجماليات عمارتها العتيقة ذات الطراز العثماني، فضلا عن شرفاتها وزخرفة أبوابها ونوافذها. كان المبني في الأصل - شيد سنة 1630م - مقرا للقنصلية الفرنسية، حتى سنة 1939 م .. بعد ذلك سكنه مجموعة من البحارة قبل أن يؤول إلى مشروع إدارة تنظيم المدينة خلال عشرية الثمانينيات من القرن الماضي، ليندرج فيما بعد ضمن خطة الفضاء الثقافي.

صحيح في البداية استهجن بعض اليائسين من إقامة هكذا نشاط فيما العاصمة تضج بجرائم الاغتيالات والخطف والنهب، وسكانها قلقون على أرواحهم، وخائفون على بناتهم وأطفالهم، وقد أنهكهم الوقوف لساعات طوال بين طوابير الخبز والمحروقات والمصارف. لكن وبمجرد انتظام تلك الجلسات الأدبية، التي بادر بها الأصدقاء كنشاط ثقافي تضافر في تأثيثه حماس مخلوط بحلم الحياة والانتصار لها، حتى أخذ يتضاعف عدد المرتادين من عشاق الأدب والمهتمين بقضايا الثقافة، لتتحول لقاءات الإبداع إلى تقليد منتظم مع أول يوم ثلاثاء من كل شهر .. عبر أمسيات تحتفي بالثقافة والإبداع، من حلقات نقاش وأمسيات شعرية ومعارض للرسم، وندوات حول قضايا الكتابة الأدبية، وأخرى تشمل شهادات لتجارب مبدعين من أدباء وفنانين، فضلا عن محاضرات في الفكر والتاريخ والعمارة، وغيرها من المحاور

التي ينشغل بها المعنيون بحقول المعرفة الإنسانية.

هذا ما طمح الأصدقاء لتفعيله وسط فوضى الاقتتال، وقفل الشوارع، وانتشار جرائم القتل والسرقة والخطف، وانقطاع التيار الكهربائي، والمياه، وشح الخبز، ونقص الوقود والسيولة، والغلاء الفاحش، وتردي الأخلاق العامة، وأخبار قوارب الموت. لأنه في خضم هذا التغول، يكفي في الحد الأدنى، أنهم يضخون في وجدان مدينتهم العريقة، تلك الطاقة التي يمكن استخلاصها من قصيدة كتبت نفسها في الظلام، أو قطعة موسيقى حالمة تفتح نوافذ في جدران الروح، أو لوحة تشكيلية تشير إلى أُمّ فقدت ابتسامتها لطول ما انتظرت عودة ابنها من جبهات القتال.

شعراء الجمر والفوضى

إزاء هذا التوغل المخيف للقبح، هل يمكن للجمال أن يصمد ؟

ليست ليبيا بلدا عربيا استثناء، طالما عليها أن تخوض بين فترة وأخرى حربا مع عدوها أو مع نفسها، وان كانت في كلا الحربين تحتفظ بخصوصيتها. فخلال حقبة الاحتلال الايطالي خاضت حربا استمرت عشرين سنة، أوجزها الشعراءُ في قصائد شكلت وثيقة مهمة في تاريخ النضال الليبي. ولعل القصيدة الملحمة « ما بي مرض » للشاعر رجب أبو حويش، تُعد الأبرز في هذا المتن. والتي ولدت داخل أسوار معتقل العقيلة، كأحد المعتقلات الجماعية التي تفننت الآلةُ العسكريةُ للاستعمار الفاشستي في تصميمها، لعزل الأهالي عن فرق المجاهدين، منعا لأي دعم لوجستي، حتى ولو كان بائسا ومحدودا.

ثمة محاولات عديدة تضمنتها - فيما بعد - مدونةُ الشعر الليبي، بفرعيه (الشعبي والفصيح)، لمحاكاة ملحمة الشاعر: رجب أبوحويش، غير أنها تظل في الغالب جد خجولة، مقارنة بإعجاز الأصل. وعلى الرغم من أن الشعر الشعبي كان أكثر تداولا وحضورا في ذاكرة الناس، لكن قصيدة الفصحى بكل أشكالها ما تزال هي الأخرى تسعى وبطموح كبير، لأن يكون لها بصمتها الخاصة في

معركة الحياة.

في سنة 1981 عُقد في العاصمة طرابلس مهرجان للشعر العربي، تحت مسمّى (الشعر المقاتل). هذا العنوان الشِّعَار، انطوى على مفارقة، حاولت أن تتحايل - كما يبدو - لأن تكون مجازا، حتى تنسجم مع صخب إعلام العقيد القذافي، المهووس صوتيا بظاهرة صناعة الشعارات. غير أن المفارقة الأشد غرابة، أن أجهزة النظام وفرق لجانه الثورية، كانت قبل سنتين تحديدا من إقامة هكذا تظاهرة ثقافية، قد زجّت بمعظم الكتاب الشباب في السجن، بينهم شعراء تائقون، صدرت ضدهم أحكام قضائية بين المؤبد والإعدام.

في مهرجان الشعر المقاتل، شارك شعراء عرب كبار، مثل: ممدوح عدوان، مظفر النواب، ونزيه أبوعفش، وشعراء شباب من بلدان عربية، بعضهم يغادر وطنه الأمّ للمرة الأولى. قبل موعد الافتتاح الرسمي، كانت قد تسربت قائمة الشعراء الليبيين المسجونين داخل أروقة المهرجان، فتحمّس رهط من الشعراء الضيوف، على رأسهم الشاعر الجزائري الشاب، عمر ازراج، لتجميع توقيعات المشاركين، كبادرة تلتمس العفو عن زملائهم المسجونين.

لا شك أن هذه الحماسة التضامنية في حينها كانت أكثر من جريئة، وهي بقدر ما أربكت برنامج المهرجان، سببت حرجا واستفزازا للنظام، عبرت عنه حالة استنفار ظائشة لأجهزته الأمنية، ولجانه الثورية، وقد انقلب السحر على الساحر.

ما حدث بعد ذلك جراء هذه الفضيحة، أن نظام القذافي لم يعد يقامر مرة أخرى على إقامة هكذا تظاهرات شعرية، وبدا أكثر ارتيابا وتوجساً وهو يضاعف من تضييق الخناق على حركة الشعر، وتقليص فاعليتها إلى أقصى حدّ. حيث شهدت السنوات العشر التالية فقرا مُدقِعا في صناعة ونشر الكتاب الأدبي ولاسيما الشعري، بعد أن خضعت المطبوعات لرقابة صارمة إلى حد الوسوسة في تأويل النصوص أمنيا. وحتى تلك الأمسيات الدعائية، والتي كانت تقام تحت مظلة الاحتفال بذكرى أعياد الفاتح من سبتمبر، كانت تقتصر - إلا فيما ندر - على صنف من الشعراء المَدَّاحين، يتألف جمهورها في الغالب من سدنة النظام والمخبرين وأعضاء اللجان الثورية. ويوما عن يوم، نتج عن هذا الإفراط المتزايد في ضراوة القمع، تهميش وإقصاء، لمعظم ما هو أصيل وحقيقي، ولم يبق في المشهد البائس غير بعض المهرجين الذين كانوا يرتزقون عبر تحويل الشعر إلى منابر للتزلّف. وهكذا اتسعت الفجوة بين الشعر ومحبّيه.

استعدتُ هذه الوقائع وغيرها، في اللحظة نفسها التي كنتُ أتهيأ خلالها لكتابة مقال عن دور الشعر وفاعليته، وكيف يقرأ الشعراء الليبيون، من موقعهم كمبدعين، الأزمة الحالية التي تمرّ بها البلاد. وفي الوقت نفسه كنت أتهيب استخدام عبارات على شاكلة: الشعر في مواجهة الحرب والفوضى، خشية أن أتواطأ مع حماسة الكتابة كفرقعة إعلامية، وان أجافي من ثم الحقيقة الصادمة كما تلخصها شراسة اللحظة الراهنة.

صحيح ثمة شعراء في ليبيا قد ثابروا، ومازالوا يثابرون من موقعهم كمبدعين على معالجة موضوعة الحرب وما تمخض عنها من فوضى. وكتبوا نصوصا تتمتع بقدر كبير من الجدة والجرأة والتنوع، بتوقيعات شابة، استأنست بمواقع الانترنت بعد أن توقفت الصحف، وضاق فضاءُ المحافل. لكن قد تُعدّ المسألة أكثر تعقيدا حين تحضر القصيدةُ في غياب المتلقي. ليغدو الشاعر كمن يحرث في الماء طالما هو يقف بمفرده وحيداً في المشهد.

لا شك أن هذه الصورة ستكون للوهلة مدعاة للسخرية، لتبدو كما لو أنها لقطة منتزعة من رواية (دون كيخوته). لأننا عندما نرصد المشهد من الزاوية ذاتها التي يقف فيها الشاعر، أي من وجهة نظر المنبر الوهمي، حيث تتمترس القصيدة لتطلق نيران مخيلتها، سيكون الكادر مخيبا وعبثيا في آن، إزاء الجمود الموحش لصمت مهول يملأ القاعة، هو فقط محض مقاعد خالية. غير أن هذا العبث الشعري - لو فكرنا قليلا - لا يلبث حتى يتحول إلى جمال عظيم، مقارنة بما يحدث في اللحظة نفسها خارج القاعة من خراب فادح، يحصد الأرواح ويدمر العمران، ويقتلع مدنا بأسرها، ليهجر أهلها شتاتا داخل ليبيا وخارجها. حينها فقط سندرك تماما أن الشاعر هنا، يعتبر كالقابض على الجمر، عندما يقترحُ للجمال هذا المأوى.

خُبْزٌ وشِعْر

إذا ما توعّك فرّان الحيّ، حتما سيغضب أهل الحيّ، لأن غياب الفران يعني بداهة حرمانهم من الخبز، وبالتالي سوف يتساءلون في غضب وحنق، وربما في سخط، عن أسباب غياب الفران التي استدعت من ثم إقفال الفرن، واختفاء الخبز والخبيز؛ وقد يتظاهرون ويعتصمون ويقيمون الدنيا ولا يقعدونها. يتكرر الحال نفسه بصدد اختفاء عمّال النظافة، لحظة أن تتراكم الأوساخ وتتكدس أكياس القمامة وأكوام النفايات في الشوارع دونما أحد يجمعها ويحملها إلى حيث المكبات العامة. كذلك سيغضب الحيّ بقضه وقضيضه فيما لو أُفتُقِد البقال والخضّار والقصاب والطبيب، ومعلّم التلاميذ والشرطي والمصرفيّ؛ لأن الفران وعامل النظافة والطبيب والصرّاف والبقال والحلاق والخضّار والمكوجي والتارزي وحتى القهواجي والسنفاز، يقدمون خدمات يومية تندرج في خانة الضرورات التي تلبّي حاجات ملحة تشبع متطلبات الجسد وما يقع في حكمها، ولاسيما المعدة، وبصورة خاصة حينما يتعلق الأمر تحديدا بدور الخبّاز والبقال والخضّار والطبيب والصرّاف . لكن لو غاب المثقف لأمرٍ ما، سواء توعك أو أضطر للسفر أو لديه ما يشغله عن العطاء، أو دهسته سيارة مسرعة، فغادر الحيّ دونما رجعة؛ فأن السكان لن يستشعروا

غيابه. لأنهم (أي سكّان الحيّ) قد تعودوا لأسباب معلنة وخفية هذا التجاهل لشخص المثقف؛ فهم بطبعهم، وطبيعتهم التي جبلوا عليها، غير مبالين بشؤون الثقافة وأهلها، ولا تعنيهم البتة مشاكلها وقضاياها. فلو توقفت لأي سبب من الأسباب الجريدة اليويمة عن الصدور، فلن تخرج مضاهرة شعبية غاضبة تستنكر اختفاء جريدتهم؛ كما لن يتساءل احد عن إقفال المسرح ودار العرض والمكتبة العامة وغيرها من منشآت ودور الثقافة. هذه الكوميديا السوداء ستتحول مشهديتها الى صور أكثر تراجيدية وفداحة حين يتعلق الشأن بغياب الشاعر؛ فهذا الكائن الذي كان في زمن عربي ما، طوته الذاكرة، ومحاه النسيان، كان محل احتفاء وترحيب وتبجيل من أهله وذويه، أمسى مجرد مخلوق نكرة لا يُعوّل عليه، فهو كما لو أنه قد ارتدى طاقية الإخفاء، بالكاد يمكن أن يُرى، فحتى أثناء عبوره ممرات وأروقة المؤسسات والهيئات الثقافية، لا أحد يعبأ به، فسيان حضوره أو غيابه. هكذا هي صورته، باهتة وعابرة وهزيلة وسط فضاءات الثقافة التي يفترض أن يكون الشاعر احد دعائمها، فما بالك بشوارع وأزقة الحي، التي كرسّت اعترافها فقط بخدمات الفران وصاحب مطعم الدحي، والسنفاز، وعامل النظافة، وبذا لن تجد ضيرا حين لا تقيم ايما وزن لهكذا مخلوق لا عمل له سوى ترويض الخيال. إزاء هذا النفي العرفيّ والتقليدي والشعبي والرسمي لكيان الشاعر، تبدو آلة الواقع أكثر تعقيدا لحظة أن

تتآمر على وجدانها، وتلهث دونما هوادة خلف حاجات الجسد، غافلة متطلبات الروح، وبالتالي قد تنتج هذه الآلة الوحشية سلوكا في غاية الضراوة والخطورة لحظة أن تتواطأ المنابر الإعلامية التي يناط بها إعادة صياغة وإنماء الوجدان عبر حضور الشاعر، لتقف من حيث تدري أو لا تدري مع منظومة إقصاء الشاعر وتهميشه. فلا غرابة إذا لم يحظ الشاعر في عهد الديكتاتورية والطغيان بأي اعتراف من مؤسسات أقيمت تحت عناوين ثقافية وإعلامية تعمل على تدمير القيم، وتجفيف الوجدان الجمعي عبر أربعة عقود من نظام العسكرة ومجتمع الثكنات الذي يضع من بين أولويات سياساته الثقافية تعطيل مخيلة الإبداع، وشلّ روح التضامن، ومسخ الوجدان الوطني، لكي يسرّع بقيام جماهيرية القطيع. وبالتالي قد اندرج الترويج والتسويق لتتفيه وتمييع شخصية الشاعر بصورة ساخرة وتهكمية في المنابر والمحافل ضمن مفردات تلك المخططات المقيتة، إلى الحد الذي دفع بأحد ما يسمّى بأمناء (وزراء) الثقافة والإعلام أن يطلق على الشعراء صفة (كلاب سوق). وهو سلوك غير مستغرب في حينها من نظام قمعي كرس آلته الإرهابية لتصفية وتكميم أفواه المثقفين والمبدعين. لكن أن نكتشف، خلال زمن ثورة التحرير، وفي ظل تحولات ليبيا الجديدة، أن بعض منابرنا الإعلامية المحسوبة على القطاع الإعلامي لحكومات 17 فبراير في مرحلتها الانتقالية، مازالت ترتكب مثل هذه المثالب في حق

الشاعر وقصيدته. لا ريب أنها معضلة تنطوي على مفارقة صعبة. هذه المفارقة لن يكون فهمها محيّرا لحظة أن ندرك بأن مثالب التجفيف نفسها التي كابدنا طغيانها طيلة أربعة عقود من الغبن والإقصاء والتحقير والتهميش لدور الشاعر وقصيدته، مازالت عالقة بعقلية بعض إعلاميينا ولاسيما ممن يدّعون بأنهم من حملة أفكار ليبيا الجديدة. لأنهم لم يتوصلوا بعد لأيما مفاهيم حداثية تتعلق بخطط سياسات ثقافية تنسجم مع ليبيا الجديدة بعد 17 فبراير؛ حتى يمكنهم إدراك فداحة حماقاتهم، وأن تهميش الشاعر أو وأد قصيدته، لا تقتصر أضراره على الشاعر وقصيدته فحسب، بقدر ما يعدّ جرما فادحا في حق وجدان الوطن بأسره. وفي انتظار أن يأتي الزمن الممكن، زمن الرؤى الطيبة والبهاء المبارك، الزمن الذي تستعيد فيه القصيدة مجدها ومكانتها كغذاء ضروري للروح، يمكن حينها أن يغضب سكان الحي أو تثار حفيظتهم، لحظة غياب الشاعر وقصيدته عن نسيج وجدانهم بالقدر الذي يستدعيه غياب الفران، واختفاء رغيف الخبز.

رقصة الحصان الكوري

في الميكرو باص (Iveco) كعلامة ليبية مسجلة من حيث توفّر سبل الراحة والهدوء والطمأنينة، بفضل سائقيها الشبان الذين كما يبدو، هم دائما في حالة من النشوة والتوهان، وكأنهم يقودون تحت تأثير السكر. فجأة ارتفع عبر مكبرات الصوت، صخبُ أغنية (غانغام ستايل)، فأبتهج طفلي آسر ذو الست سنوات وهو يلفت انتباهي إلى الأغنية مرددا اسمها بطريقته (جام ستابل). فادهشتني حالة تعلقه بالأغنية، وقلت في نفسي أن هذا الجيل قد تفوق علينا من حيث المعلومة، فهو يعرف كل شيء. كنت أدرك أن التلفاز قد أسهم في توجيه حواسنا وإعادة تكييف وصياغة ذائقتنا وميولنا وشغفنا. ثم انتبهت في اللحظة ذاتها إلى أن معظم الشبان من ركّاب الايفكو قد بدأوا يتمايلون ويحركون رؤوسهم تبعا لأيقاع الأغنية ..وهكذا قطعنا مشوارنا، من حيّ باب بن غشير إلى شارع عمر المختار، على إيقاعات أشهر أغنيات الراب بنكهة كورية جنوبية. أثناء سيرنا أنا والصغير عبر الرصيف المحاذي لواجهة معرض طرابلس الدولي، كان ضجيج أغنية الغانغام ما يزال يتردد في كومة رأسي. وكنت أتساءل بيني وبين نفسي عن السرّ وراء تلك الزلزلة التي أحدثتها شطحة

مغني الراب الكوري الجنوبي، ساي (بارك دجاي سانغ)، عبر أغنيته الضاربة تحت وقع رقصة الحصان الكورية أو الحصان الخفيّ، والتي غدت بين ليلة وضحاها أشهر من نار على علم، غزت معظم خرائط وأقاليم العالم، واكتسحت كبرى الساحات والميادين في أمّهات عواصم أوربا، واثارت ضجيجا وجدلا وصخبا له أول وليس له آخر، ولا سيما بعد أن خلخلت وقوّضت عروش زعماء وملوك وقياصرة الموسيقى، وهزّت امبراطوريات الطرب وأطاحت بألمع كواكب ومجرات ونجوم الراب والبوب والروك والتانغو والسيمفوني، بعد أن اكتسح مغناطيس جاذبيتها السحرية أرقاما قياسية حطّمت المعقول واللامعقول، حيث استطاعت أن تهيّج جموح المراهقين، وتستدرج رقص الأطفال، وتخلخل رصانة الكهول، وتلعب بأوتار الشيوخ والعجائز، وتمكّنت بقدرة عجيبة، لا عهد للفن بها، وفي غضون أشهر قليلة - تعد على أصابع اليد الواحدة - من استدراج قرابة المليار زائر على اليوتيوب،* الأمر الذي لا سابق له، بل يعد فتحا جديدا في عالم الفن والطرب والغناء والرقص والموسيقى. ما هو السرّ الذي وهب هذه الأغنية جاذبية لا تضاهى، وجعل من مغنيها المغمور نجما عالميا يتلقى الدعوات ويجوب العالم ويحصد الجوائز ويحظى بشرف ضيافة علّية القوم من صنّاع القرار وأبرز الأثرياء والنجوم وكبار رجالات الساسة. هل أمسى العالم هشا وتافها ومائعا إلى الحد الذي تُهزّ فيه أردافه مع إيقاعات

وأنغام أغنية بسيطة ذات كلمات متواضعة فنيا، و(بلغة كورية) غير مفهومة خارج موطنها. السؤال نفسه سيعيد صياغة جملته بدهشة أخرى إزاء تلك الميزة التي وهبت هذه الأغنية قدرة فائقة وسرعة ضوئية مكنتها من عبور القارات، بشتى ألوانها ولغاتها وأجناسها وملها وثقافاتها ومعتقداتها، لتكتسح وفي سهولة ويسر قلاع العالم بقضه وقضيضه، في غضون أسابيع قليلة. من يجيد اللغة الكورية الجنوبية يقول أن ابنها البار، المغني (ساي) يتهكم في كلمات أغنيته الصاروخية، وبطريقة في غاية السخرية والشرشحة من سلوكيات ومظاهر وعادات سكّان حي (غانغام)، أحد أحياء سيول المعروف بمحاله وأسواقه الفاخرة ومطاعمه المفضلة لدى المشاهير. هكذا أغنية ساخرة وقصيرة، مصحوبة بحركات تسمى (رقصة الحصان الكوري)، وتلهج بكلمات لغة مغمورة، تمكّنت من أن تحظى بكل هذا الإعجاب، مرحبا بها من كافة سكّان قارات العالم بمختلف أديانه ومشاربه وحضاراته، في الشرق والغرب والشمال والجنوب، لتحظى باحتفاء جامح وصلت حماسته إلى أقصى درجات الشغف والجنون. هل ثمة سرّ غامض وخفيّ وراء صعود هذه الأغنية الفلكية؟ كيف يُكتب لها كل هذا الانتشار إذا كان معظم الملايين الذين رقصوا وهاجوا وشطحوا مع أنغامها لا يفهمون كلماتها ..؟ هل هي ضربة حظ عشواء كما خمّن البعض، أم السرّ يكمن في ضربة سوط على ظهر الحصان الكوري، هي التي ألهمت المغني (ساي) بهذه الرقصة

السحرية التي هزّت أوساط آسيا وأوربا والولايات المتحدة وكندا وافريقيا، بل وصلت الى عقر دار الناطقين بلغة الضاد، فها هم - كما تردد في بعض المواقع الاخبارية - شبان من أنصار الراب السعوديين، قد تفننوا على طريقتهم بتقليد حركاتها وهم يرقصون بقمصانهم الطويلة البيضاء، بعد أن اخترقت غانغام ستايل أوساط اللبنانيين، وحتى بعض الشباب السوريين - والعهدة على الراوي - لم تقف محنة وطنهم حائلا بينهم وبين تفويت متعة الرقص صحبة إيقاع الحصان الكوري. من السذاجة والحمق أن تعد هذه الظاهرة مجرد نزوات عابرة، لحظة أن تظلّ محيّرة ومربكة، بل ومتعذّرة الفهم، كذلك يعد من الحمق، بل من الغباء اعتبارها محض طفرة ما تلبث أن تزول ويلفها النسيان، كسحابة صيف (خلّب) ستنقشع مع أول هبوب للريح، من دون أن تترك أثرا. هذا التبسيط والاستخفاف بظاهرة غنائية كونية جلبت قرابة مليار مشاهد قد يكون مخلاً على نحو ما، حين يغفل بأن أغنية الحصان الخفي هي في حقيقة أمرها كثيرة الشبه بحصان طروادة؛ حيث لا يكفي القول بأنها تندرج ضمن تفشي ظاهرة تسليع الفن المعولم، لحظة ترجمة هذه الطفرةُ ووضعها ضمن إطارها وحيزها الإعلامي ومجتمعها الافتراضي؛ لأن آلةَ العالمِ بدأت تعمل تبعا لجاذبية الإعلان الفضائي، وسحر (الصورة) و (الإيقاع)، وأن المسألة برمتها تتعلق تحديدا بتحريك الجسد، لا الوجدان. ولعلّ توظيف الإيقاع الوحشي هنا، بعيدا

عن روح الموسيقى، كان له تأثيره و سلطانه في تهييج تلك اللغة المشاع، التي تخترق الحواس،وتهزّ الأبدان من دون أيما حاجة للفهم، حيث يكفي هنا صناعة المتعة وحدها. هذه الأسئلة – وبنوايا حسنة – تنبش على نحو ما، موضع البراءة، وفي الأثناء، لا تهمل نوايا المكر والخداع في هكذا صرّعات عابرة للقارات، فهي حتما، ومن خلال تراكماتها، ستمحو قيماً وتضيف أخرى بديلة. لكن، وفي نهاية مطاف هذه الرقصة الكورية الكاسحة، ألا يحق لنا أن نخشى على قيمنا من غزوات مريبة، وحتى لا نتوه بعيدا عن موسيقانا ولغتنا وأشعارنا وحكاياتنا، يحق لنا أيضا – كحد أدنى – أن نسأل أنفسنا، ما الذي يحدث في هذا العالم. فقط هذا كلّ شيء. يقول العارف، عوضا عن استنطاق أغنية ساذجة، ومكابدة البحث في أعطاف كلماتها وموسيقاها عن معجزات لم ولن توجد، تقتضي الحكمة التوقف قليلا، والتنقيب في داخلنا، بدل أن نذهب بعيدا لنضيع في متاهة لغات لا نفهمها، لأنه والحالة هذه، علينا الاعتراف بأن الخلل يكمن في ما وصلت إليه ثقافتنا السمعية والبصرية من تشوّهات قيمية مسّت الجوهريّ فيها، فقد يحقّ لك أن تغني وترقص بكل الإيقاعات والأنغام القريبة والبعيدة، الأليفة والوحشية، بشتى هوّياتها ومواطنها وسلالاتها، من محاكاة مخلوقات البتلز إلى كائنات الراب، مرورا بالشطح على (بنادير الحضرة ودرابيك المرزكاوي) والدبكة والزار والراي والكاسكا، مثلما يحق لك أن ترتدي ما يلبّي رغبتك

من أزياء بشتى ماركاتها وصرعاتها بما فيها سروايل النصف ساق ،وحتى النصف مؤخرة؛ وأن تطلق لشهيتك العنان لشتى أصناف المأكولات التي تجود بها الإعلانات ومطابخ فتافيت والشيف رمـزي، ولـك مطلق الخيار في المفاضلة بين البازين والعصبان مرورا بالهامبورغر والبيتزا واللازانيا، ... الخ. وبالمثل يمكنك أن تزاحم خلق الله، وتقلّد وتتماهى وتستأنس وتروم وتشغف وتحب كما يحلو لك. فقط ثمة سؤال ملحّ وضـروريّ، يعد من الحمق لو لم تتوقف عنده قليلا، وهـو: كيف تسمح لنفسك بكل هذا التطفّل لتستهلك منتجات الآخر، من الإبرة إلى التلفاز/ من عود الثقاب إلى المصباح الكهربائي والقطار والطائرة والدبابة والصاروخ/ من ورق التواليت إلى السفينة، من القلم إلى الكمبيوتر، من السينما إلى الموسيقى، مرورا بمكياج زوجتك، والعاب طفلك، طلاء غرفتك وأثاث واكسسوارات بيتك، وبكل أدواتك ومستعملاتك اليومية: قداحتك، مفاتيحك، علبة سجائرك، جواربك، أحذيتك، قمصانك، عطرك وقهوتك وساعة يدك وهاتفك الجوال. من حضرة الايفكو إلى بلاط الرصيف؛ بينما أنت لست شريكا حقيقيا في صناعة هذا العالم، لأنك في حقيقة أمرك خارج المسهمين في تنضيد نسيجه وتأثيث حلمه وثقافته ورؤاه، ثم وبكل يسر، ها أنت لا تجد أيما غضاضة بهزّ أردافك والانجذاب بكل خفّة، بمجرد أن ترتفع إيقاعات أغنية غانغام ستايل. ثم تتساءل في حيرة، ما السرّ ؟ كما قلت لك،

وحتى لا نتوه بعيدا، أن السر لا يكمن فيما تعتقده من تفاهة العالم. بل عليك إذا أردت معرفة السرّ، أن تنظر أولا تحت قدميك قبل أن تتأهب لخطوتك التالية خارج عتبة بيتك. لأن الفتى الكوري (ساي)، بعد أن رصف أهله وذووه الطرق وبنوا المصانع والأبراج والقلاع والأنفاق والبوارج والقطارات، وبرعوا في فنون مخترعات التكنولوجيا الالكترونية والدقيقة والرقمية ..وغيرها من الابتكارات العظيمة، فكّر هو من جهته في إضافة لمسة يسيرة ومتواضعة إلى موسيقى العالم، فلجأ إلى تطعيم الراب بنكهة كورية، وقبل أن يرقص في باريس ولندن وواشنطن، اطلق أولا حصانه الكوري في ميادين سيول.

لهذا وذاك منحته بلاده وسام (أوكوغوان) للاستحقاق الثقافي، والذي يعتبر من أرفع الأوسمة في كوريا الجنوبية. ألم أقل لك: علينا أن نفكّر أولا، حتى لا نضيع مرة أخرى.

• كتبت هذه المقالة في أواخر 2012

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

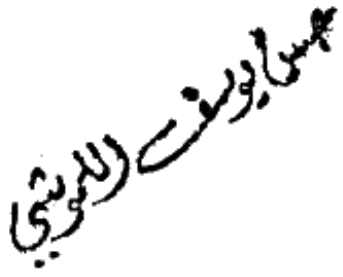

المحتويات

النص	الصفحة
● الإهداء	5
● مثل حيوان طائش	8
● خارج الثكنة	51
● تقطير العزلة	02
● معركة ضارية لغزو قصيدة	32
● ثلاث نملات تعبر كتابا	52
● كلاشنكوف	82
● أنا في الشارع	13
● أنا في البيت	43
● النظر إلى جثة	63
● حديقة بورتا بينيتو	83

النص	الصفحة
● نساء الصدف	34
● طلعت يا محلى نورها	64
● أن تكون شيئا	94
● حلم	65
● الرجل العليل وزوجته الغيورة	85
● شكرا لكل شيء	06
● طبيعة صامتة	36
● الفئران تعقد مجلسا	96
● حوار في غرفة	47
● المليونير	67
● مشيئة اللصوص	87
● تأويل الألف	18
● كتاب	38
● رأس المملوك جابر	78
● مونولوج	09
● حلقة مفاتيح	59

النص	الصفحة
● في الثكنة	79
● لغة	89
● نثر الوجه	001
● تنظيم الألم	201
● باب الأعمى	401
● على نهج النفري	601
● إشارة	801
● لاوتسو الحكيم العجوز	011
● علي صدقي عبد القادر	211
● أدم حاتم والشاردة في ملكوت الجمر	511
● محمد الفقيه صالح الشاعر النبيل	711
● بابلو نيرود القنصل	911
● هكذا تكلم غارودي	221
● يغفيني بيفتشنكو. بابي يار	421
● خليفة الفاخري صباح الخير أيها البحار النبيل	821
● هيرتا موللر	031

النص	الصفحة
● محمد سالم الحاجي نسيان مالاينسى	231
● جميل حمادة أيام باب البحر	431
● مشرق الغانم كيف لي أن أغفو ثلاثين عاما	631
● انتوني بيرجس كلماتٌ تحلمُ	931
● طرابلس	241
● معجم الطين	441
● أسماء	741
● رئة	941
● حياة	151
● جدار برلين	351
● مديح	651
● كنز العين	951
● بيت من كلمات	161
● ضحك	361
● أن تكون ذئبا	561
● رسالة من كركوك	761

النص	الصفحة
● فرمان حريات مقيدة	071
● حروب كراسة الرسم	471
● فرانكشتاين الربيع الليبي	971
● أصدقاء دار الفقيه حسن	481
● شعراء الجمر والفوضى	881
● خبز وشعر	291
● رقصة الحصان الكوري	196

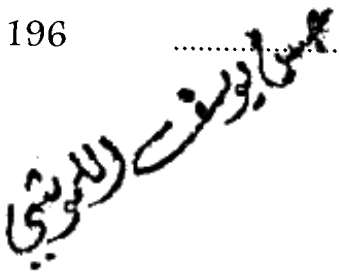

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

■ موجز في السيرة الذاتية:

- الاسم : مفتاح أحمد عبد السلام العمّاري
- اسم الشهرة : مفتاح العمّاري
- ولد في بنغازي 16 يوليو 1956 .
- تحصل على الشهادة الابتدائية (بنغازي 1969).
- التحق بالجيش كجندي مشاة 1971 ليعول أسرته بعد وفاة الأب في وقت مبكر .
- في سنة 1973 بدأت رحلته مع المكتبة، كقارئ شغوف بالأدب تحديدا .
- في منتصف سبعينيات القرن العشرين خاض مغامرة الكتابة الإبداعية كمحاولة لإعادة إنتاج قراءاته وتجربته في الحياة .
- معظم نتاجه يعد كمغامرة لتدوير سيرته كجندي مشاة وتجربته في حرب تشاد، من منظور ذاتي .
- كتب في الشعر والسرد والمسرح والمقاربة النقدية وأدب الطفل، والدراما التلفزيونية وأعد خمس برامج ثقافية للراديو بث في الإذاعات المحلية.
- نشر وكتب في الصحافة الوطنية والعربية، وبعض المواقع الالكترونية، كما تولى الإشراف على الصفحات الثقافية في أكثر من مطبوعة ليبية.
- عمل كمستشار لعدد من المؤسسات الثقافية الليبية في مجالات النشر والإبداع الأدبي .
- شارك في الكثير من النشاطات الثقافية داخل ليبيا عبر أمسيات الشعر ومهرجانات الفنون والآداب، كذلك كانت له العديد من المشاركات خارج ليبيا في مهرجانات أدبية وفنية، من بينها : المربد / بغدد 1987 : 1998 . الدورة 11 لمهرجان دمشق المسرحي : 1988 . شعراء المتوسط / لوديف، فرنسا 2001 / ربيع الشعراء / معهد العالم العربي، باريس 2003 .
- صدر له أكثر من عشرين مؤلفا توزعت عناوينها بين الشعر والسرد والمقالة .
- تحصّل على جائزة تشجيعية في الشعر 2010 .

وجائزة مجلة (أركنو) للإبداع 2012 .

- يمكن ملامسة مفاتيح تجربته ورؤيته للكتابة، فضلا عن جزئيات من سيرته ،عبر آخر حوار أجرته معه مجلة نصوص خارج اللغة التي تصدر عن مؤسسة أطياف، والتي اقترحته كشخصية ثقافية لعددها الثالث الصادر في شهر سبتمبر 2017 .
- ترجمت بعض نصوصه إلى اللغات البلغارية والفرنسية والانجليزية، كان آخرها في مجلة « الحياة والأساطير» الأمريكية ضمن عددها الصادر في شهر مارس 2017 .
- له مدونة شخصية على البلوجر تحت وسم (وسادة الراعي) تعنى بنشر كتاباته ،إضافة إلى صفحته الشخصية على التويتر (twitter) .
- يعكف الآن على غربلة وتشذيب نسخة نهائية من إحدى مخطوطاته في الرواية .

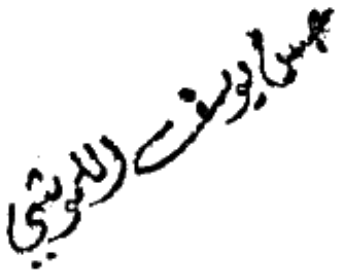

متاح للتحميل ضمن مجموعة كبيرة من المطبوعات من صفحة

مكتبتي الخاصة

على موقع ارشيف الانترنت

الرابط

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

■ **صدر للكاتب:**

1 - قيامة الرمل - شعر - طرابلس /ليبيا - 1992 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

2 - كتاب المقامات - شعر - ليماسول / قبرص - 1993 - دار الملتقى .

3 - رجل بأسره يمشي وحيدا - شعر - بيروت / لبنان - 1993 - دار غربة .

4 - فعل القراءة والتأويل - نقد أدبي - طرابلس/ ليبيا - 1996 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

5 - منازل الريح والشوارد والأوتاد - شعر - ليبيا - 1996 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان.

6 - السور - تأليف مشترك بمعية الكاتب مجاهد البوسيفي - مسرحية - ليبيا - 1996 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان .

7 - ديك الجن الطرابلسي - شعر - طرابلس /ليبيا - 2000 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان

8 - رحلة الشنفرى - شعر - ليبيا - 2000 - الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان .

9 - جنازة باذخة - شعر - طرابلس ليبيا - 2003 - منشورات مجلة المؤتمر .

10 - مشية الآسر - شعر - بنغازي /ليبيا - 2004 - مجلس تنمية الإبداع.

11 - عتبة لنثر العالم - في النقد الأدبي - طرابلس ليبيا - 2006 - سلسلة مجلة فضاءات .

12 - مفاتيح الكنز - سرد - طرابلس ليبيا - 2007/2006 - اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام .

13 - السلطانة - شعر - طرابلس ليبيا - 2007/2006 - اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام.

14 - نثر الغائب - سيرة شعرية - طرابلس ليبيا - 2007/2006 -

اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام .

15 - برج العقرب - مسرحية - طرابلس ليبيا - 2006 /2007 - اللجنة لشعبية العامة للثقافة والإعلام.

16 - نثر المستيقظ - نصوص - ليبيا - 2008 - مجلس الثقافة العام .

17 - فسيفسائي - شعر - ليبيا - 2008 - اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام.

18 - فن العزلة، نهاية العالم - مقالات في الأدب والحياة - طرابلس ليبيا - 2008 - اللجنة الشعبية العامة لثقافة والإعلام .

91 - حياة الظل. نصوص. 2013 . وزارة الثقافة والمجتمع المدني .

20 - مدونة النثر الليبي . شعر . 2013 .وزارة الثقافة والمجتمع المدني .

21 - ثكنات . شعر . نشر الكتروني . 2015 . موقع بلد الطيوب.

■ **له تحت الطبع :**

● تحطيب سكان الريح. (قصائد).

■ **مخطوطات :**

● رأس الطين . رواية.

● الكامبو . رواية .

● تجارب ضالة . قراءات ومقاربات نقدية.

● جنديّ المشاة الخجول. سيرة.

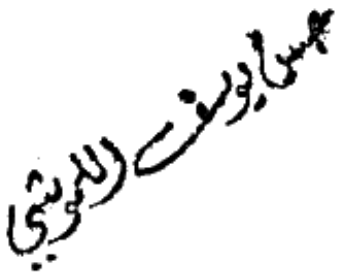

تقطير العزلة

محاولة لتدوير
خانة الصفر

مفتاح العمّاري

من المجدي بين حين وآخر إعادة النظر في الكتابة نفسها، ليس بوصفها نصًا لغويا احتل حيزًا على الصفحة؛ إنما كتوق متوخّى، محلوم به، نسعى إلى استدراجه عبر إغوائه وجذبه، باستخدام حيل فنية مشروعة، طالما الهدف هو إنقاذ حشد من كلمات تختنق؛ إعادة النظر فيما سيكتب باعتباره نصا يتمخّض. وفيما لو اعتبرنا المخيلة رحمًا، والنص جنينًا في طور التشكل والنمو؛ ستقتضي غريزة الأمومة الإصغاء لحركته ولغته وتململه، والحرص على تلبية رغباته، والاهتمام بضرورة تغذيته، ومراجعة الطبيب للاطمئنان على صحته؛ لأن أي إخلال بالمتابعة قد يسفر عنه موت الجنين داخل الرحم، مما يسبب في حدوث تعفن وتسمم وأعراض أخرى خطيرة يمكنها أن تؤدي إلى وفاة الأم أيضا.

الهيئة العامة للثقافة
GENERAL AUTHORITY FOR CULTURE